فلسفة الدين عند سبينوزا

د/ علي محمود علي البطة

أستاذ مساعد ورئيس قسم العقيدة والفلسفة

بكلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة . جامعة الأزهر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ملخص البحث

علي محمود علي البطة

قسم العقيدة والفلسفة، كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة، جامعة الأزهر، مصر.

البريد الإلكتروني: Ali_elbata@azhar.edu.eg

الملخص:

يتناول هذا البحث بيان السمات العامة لفلسفة بندكت دي سبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧م) Benedikt de Spinoza، والتعريف به.

كما يتناول البحث منهج سبينوزا، والأثر الديكارتي على عقليته، وكيف طبق سبينوزا المنهج العقلي في صورته الديكارتية بكل صرامة على قضايا الدين؟

كما يتناول هذا البحث بيان مفهوم فلسفة الدين، وتناول سبينوزا لفلسفة الدين بوصفها موضوع الاستقصاء الأساسي في البحث الفلسفي، وإمكانية تناول قضايا الدين تناولاً فلسفياً خالصاً، والتي كادت أن تكون المحاولة الأولى المؤسسة لفلسفة الدين كتخصص دقيق، فأظهر هذا التناول الفلسفي العقلاني والنقد الإبستمولوجي الصارم لسبينوزا فهماً أعمق للدين، ففي هذا البحث نتناول عند سبينوزا قضية الألوهية، ومسألة نقده الكتاب المقدس، وقضية "الوحي والنبوة"، وقضية "المعجزة"، وقضية الميثاق وشعب الله المختار، وعلاقة الفلسفة بالدين؟ وكيف قدَّم سبينوزا نقوده العقلية للدين، وأخضع العلاقة الدينية بين الإنسان والله للبحث والاستقصاء الفلسفي المستفيض مُحَكِّماً المعايير العقلية وحدها؟ كما يبين هذا البحث هل ظهرت "فلسفة الدين" لأول مرة مع سبينوزا كبحث فلسفي منظم في الدين من حيث هو دين كميدان معرفي مستقل عن سائر فروع الفلسفة؟ أم أن جهود سبينوزا كانت جهوداً تأسيسية وإرهاصات حقيقية وضرورية أدت إلى تأسيس "فلسفة الدين" في صورتها الكاملة مع كانط (Kant ١٨٠٤) في كتابه "الدين في حدود

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العقل وحده"، والتي لم تكن لتظهر بهذه الصورة المكتملة لولا سبينوزا وجهوده في هذه المسألة؟

كما أن البحث يسلط الضوء على نقاط مهمة ومحورية في فلسفة سبينوزا لم تأخذ حقها من قبل، ومن

أهمها: التأكيد على أسبقية سبينوزا لعصره عبر إخراجه من القرن السابع عشر، وإلحاقة بالقرون التالية التي شهدت نشأة فلسفة الدين كتخصص دقيق. كما يتناول هذا البحث قضية إلحاد سبينوزا، وهل كان سبينوزا ملحداً أم لا؟.

ومن أهم ما كشف عنه هذا البحث أن سبينوزا ليس ملحداً ولا منكراً لوجود الله تعالى، بل وصفه بكل كمال، وإنما هو ملحد بإلاله في التصور اليهودي والمسيحي، الإله في الصورة الجسمية اليهودية والنصرانية، وعندما تصور سبينوزا الإله المطلق اللامتناهي تصور أنه متصل بالطبيعة غير منفصل عنها ولا منفصلة عنه، لكن فلسفته الدينية لا تخلو من مسحة روحية.

كما كشف هذا البحث أن سبينوزا بهذه الفلسفة صاحب الإرهاصات "لفلسفة الدين" كما ظهرت بعد ذلك عند كانط في كتابه "الدين وحدود العقل وحده"، ولولا أن شابت فلسفته في الدين بعض الشوائب المنهجية لكان المؤسس الحقيقي لفلسفة الدين بلا منازع.

الكلمات المفتاحية: فلسفة – الدين – سبينوزا . الإله . العالم . النبوة . المعجزة . التوراة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

that witnessed the emergence of the philosophy of religion as a precise specialization. This research also addresses the issue of Spinoza's atheism, and whether Spinoza was an atheist or not?
One of the most important things that this research revealed is that Spinoza is neither an atheist nor a denier of the existence of God Almighty, but rather described Him with all perfection, but he is an atheist in the Jewish and Christian conception of God, God in the Jewish and Christian physical image, and when Spinoza imagined the absolute and infinite God, he imagined that He is connected to nature, not separate from it nor separated from it, but his religious philosophy is not devoid of a spiritual touch.
This research also revealed that Spinoza, with this philosophy, is the owner of the precursors of the "philosophy of religion" as it later appeared in Kant in his book "Religion and the Limits of Reason Alone", and if his philosophy of religion had not been marred by some methodological impurities, he would have been the true founder of the philosophy of religion without dispute.
.**Keywords**: philosophy - religion - spinosa - reason

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Spinoza's Philosophy of Religion

Dr. Ali Mahmoud Ali Al-Batta
Assistant Professor and Head of the Department of Doctrine and Philosophy
Faculty of Fundamentals of Religion and Da'wah, Mansoura - Al-Azhar University

Abstract:
This research deals with explaining the general features of the philosophy of Benedict de Spinoza (1632-1677 AD) and defining it. The research also deals with Spinoza's method, the Cartesian influence on his mentality, and how Spinoza applied the rational method in its Cartesian form with all rigor to religious issues?
This research also deals with explaining the concept of the philosophy of religion, and Spinoza's approach to the philosophy of religion as the basic subject of investigation in philosophical research, and the possibility of addressing religious issues in a purely philosophical manner, which was almost the first attempt to establish the philosophy of religion as a precise specialization. This rational philosophical approach and strict epistemological criticism of Spinoza showed a deeper understanding of religion. In this research, we address the issue of divinity with Spinoza, the issue of his criticism of the Holy Book, the issue of "revelation and prophecy", the issue of "miracle", the issue of the covenant and God's chosen people, and the relationship between philosophy and religion? How did Spinoza present his rational criticism of religion, and subject the religious relationship between man and God to extensive philosophical research and investigation, judging by rational standards alone? As this research shows, did "philosophy of religion" first appear with Spinoza as an organized philosophical research into religion as a field of knowledge independent of other branches of philosophy? Or were Spinoza's efforts foundational efforts and real and necessary precursors that led to the establishment of "philosophy of religion" in its complete form with Kant (1804) in his book "Religion within the Limits of Reason Alone", which would not have appeared in this complete form without Spinoza and his efforts in this matter? The research also sheds light on important and pivotal points in Spinoza's philosophy that have not been given their due before, the most important of which is: emphasizing Spinoza's precedence over his time by taking him out of the seventeenth century, and attaching him to the following centuries

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن تاريخ الفلسفة عبارة عن حلقات متصلة بعضها ببعض، وتعدُّ الفلسفة الأوروبية الحديثة هي إحدى حلقاتها، وهي تزخر بالعديد من المناهج الفلسفية، والشخصيات الفلسفية الكبرى، من بين هؤلاء شخصية أحدثت قلقاً كبيراً في أوربا بفلسفتها العقلية، وهذا التأثير لم يكن في عصر الشخصية نفسها بل بعد وفاته بقرن من الزمان أو يزيد، هذه الشخصية هي شخصية الفيلسوف بندكت دي سبينوزا[1] (١٦٣٢ . ١٦٧٧م) Spinoza Benedikt de.

"وفلسفة سبينوزا لم تُحدِث أثرها الأكبر في العصر الذي ظهرت فيه؛ لأن ذلك العصر لم يكن على استعداد بعدُ لتقبل مثل هذه الأفكار. وكان لا بُدَّ من مرور قرن كامل قبل أن تتهيأ الظروف التي تجعل قبول فلسفة سبينوزا أمراً ممكناً، وظل سبينوزا مُهملاً، لا يذكر إلا باللعنات طوال هذا القرن، حتى أعيد اكتشافه على يد الفيلسوف الألماني "ياكوبي"

(١) نود التنبيه في البداية على أننا نفضل كتابة اسمه هكذا "سبينوزا" ونختلف مع كل الذين يكتبون اسمه بألف في البداية هكذا: "اسبينوزا". ولهذا التفضيل سبب: أن الاسم الحقيقي لسبينوزا هو Baruch de Espinoza "باروخ دي إسبينوزا" فهكذا كان يُكتب الاسم حتى غيّره سبينوزا نفسه بعد صدور قرار الحرمان في حقه من الجالية اليهودية في هولندا. فباروخ أصبحت بندكتوس Benedictus ، وهي المعادل اللاتيني لباروخ وتعني المبارك، وإسبينوزا Espinoza أصبحت سبينوزا Spinoza . وقد أصبح سبينوزا يوقع باسمه الجديد هذا طوال حياته. ونحن نحترم توقيع سبينوزا ونحترم قراره بهذا التعديل لاسمه. حول التعديل الذي ألحقه سبينوزا باسمه راجع:

(Steven Nadler, Spinoza: A Life, (Cambridge, 2001, pp. 42ff , 155ff.) ،

نقلاً عن: د. أشرف حسن منصور: فلسفة سبينوزا في الهوية وتطوراتها لدى شلنج، ص٧٦٨، كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"Jacobi"[1] في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وألّف هذا الأخير في عام ١٧٨٥م كتاباً عن مذهب سبينوزا في صورة رسائل موجهة إلى مندلسون، واتضح من هذا الكتاب أن سبينوزا كان من أقوى العوامل التي أثرت في تفكير شخصية لها مكانتها الكبيرة في الفكر الألماني، هي شخصية (لسترج Lersstrg) ، ثم مجّده (جوته Goethe ١٨٣٢م)، في كتابه "الشعر والحقيقة"، وأصبح اسمه على لسان الشعراء والفلاسفة والأدباء في ذلك العصر، واعترف فشته[2] و شلنج[3] صراحة بفضل سبينوزا عليهما، بينما قال هيجل[4]: "إما أن يكون المرء اسبينوزياً أو لا يكون فيلسوفاً على الإطلاق"[5].

"في هذا التطور كان كل عصر، وكل مفكر، يجد في سبينوزا ما يريد أن يجده فيه؛ فقد تجاهله الجميع في الوقت الذي كانت لا تزال فيه للصورة التقليدية للعقائد سيطرتها...، وكان هذا الاكتشاف اللاحق من أقوى العوامل التي أدت إلى تعدد تفسيرات فلسفة سبينوزا وتباينها إلى حد التعارض التام، وقد لاحظ "كاسيررCassirer" (١٩٤٥م)، هذه الظاهرة، ونبّه إليها؛ إذ أشار إلى أن سبينوزا على خلاف معظم الفلاسفة الآخرين، حيث

(١) فريدريش هاينريش ياكوبي Jacobi ، (ولد في دوسلدورف ٢٥ يناير ١٧٤٣م. توفي في ميونخ ١٠ مارس ١٨١٩م) فيلسوف ألماني مؤثر وعالم عقيدة، وأستاذ جامعي، وكاتب، وشخصية أدبية، وفرد بارز اجتماعياً. عمل أستاذاً في جامعة لودفيغ ماكسيميليان.

(٢) يوهان جوتليب فشتة Johan Gottlieb Fichte ، (١٧٦٢ . ١٨١٤م)، فيلسوف ألماني وأحد أعلام المثالية الألمانية.

(٣) فريدريك فيلهلم جوزيف شلنج Friedrich Wilhelm Joseph Schelling (١٧٧٥ . ١٨٥٤م)، أحد المثاليين الألمان الذين طوروا مذهب المثالية النقدية لكانط، أقام مذهباً أنطولوجياً متكاملاً يحوي فلسفة في الذاتية الترانسندنتالية وفلسفة في الطبيعة، ومال فكره نحو الاتجاهات الحيوية والعضوية والتطورية.

(٤) جورج فيلهلم هيجل Georg Wilhelm Friedrich Hegel (١٧٧٠ . ١٨٣١م) أحد المثاليين الألمان وأوسعهم تأثيراً، اتصف فكره بالنسقية والشمول والموسوعية. مثاليته مطلقه نظراً لتأكيده على الروح المطلق باعتباره المحدد الأول والنهائي للوجود والفكر. وتحتوي فلسفته على بعد تاريخي قوي أثر على الاتجاهات التاريخية في العلوم الإنسانية. ويضم مذهبه فلسفة في السياسة وفي التاريخ أثرتا على الفكر الاجتماعي والسياسي من بعده.

(٥) د. فؤاد زكريا: سبينوزا، الناشر: مؤسسة هنداوي، ب. ت ، ص٢٨٧، ٢٨٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يمارس تأثيره الأكبر في ميدان الفلسفة خلال حياته، أو بعد وفاته بفترة قصيرة، ولم تظهر بعده مدرسة، ولم يتأثر العالم بفكره إلا بعد "إعادة اكتشافه" في عصر متأخر، ولا سيما في القرن التاسع عشر، وهكذا مارس سبينوزا تأثيره في عصر مختلف تماماً عن عصره، يتحدث بلغة مختلفة ويفهم الألفاظ فهماً مغايراً "[1].

*** أهمية البحث:**

تكمن أهمية هذ البحث في أنه يسلط الضوء على نقاط مهمة ومحورية في فلسفة سبينوزا لم تأخذ حقها من قبل، ومن أهمها:

١. التأكيد على أسبقية سبينوزا لعصره عبر إخراجه من القرن السابع عشر، وإلحاقة بالقرون التالية التي شهدت نشأة فلسفة الدين كتخصص دقيق.

٢. كما يعرض لتناول سبينوزا لقضايا الدين بوصفها موضوع الاستقصاء الأساسي في البحث الفلسفي، وإمكانية تناولها تناولاً فلسفياً خالصاً، والتي كادت أن تكون المحاولة الأولى المؤسسة لفلسفة الدين كتخصص دقيق، التي عبَّرت عنها أفكاره الأساسية ومواقفه الاجتماعية.

٣. كما تميز اسبينوزا بفكره الذي سبق به عصره، تميز أيضاً بمنهجه الهندسي الرياضي الذي طبقه على قضايا الميتافيزيقا، وهذه من عناصر تميز سبينوزا.

*** أسباب الكتابة في هذا البحث:**

١. أن سبينوزا ترك فلسفة للدين بشكل جديد لم يتم الكشف عنها، ولم يتم تحليلها أو نقدها، وبيان ما فيها من جدة على العصر الذي كان يعيش فيه وعلى العصور التي تلته. فأردت الكشف عن هذا الموضوع الهام.

٢. أن المكتبة العربية تفتقر إلى كتابات في فلسفة الدين، هذا الفرع الجديد من فروع الفلسفة؛ ما عدا مؤلفات قليلة جداً، وبعض الترجمات، التي بدأها د. حسن حنفي بتعريب: "رسالة في اللاهوت والسياسة" لاسبينوزا، ونشرها عام ١٩٧١م، وتعريب د.

(١) د. فؤاد زكريا: سبينوزا، ص٢٨٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فتحي المسكيني لكتاب كانط: "الدين في حدود العقل"، الذي صدر سنة ٢٠١٢م ببيروت. ولعل كتاب د. محمد إقبال "تجديد التفكير الديني في الإسلام" هو أول دراسة جادة في فلسفة الدين؛ يؤلفها مسلم في العقد الثالث من القرن العشرين.

*** إشكالية البحث:**

تكمن إشكالية البحث في عدة تساؤلات يحاول أن يجيب عنها، تتمثل في الأسئلة الآتية: كيف طبق سبينوزا المنهج العقلي في صورته الديكارتية بكل صرامة على العقائد الدينية؟ وكيف أظهر التناول الفلسفي العقلاني والنقد الإبستمولوجي الصارم لسبينوزا فهماً أعمق للدين، وقضية الألوهية، وقضية "الوحي والنبوة"، وقضية "المعجزة"، وقضية الميثاق وشعب الله المختار، وعلاقة الفلسفة بالدين؟ وكيف قدم سبينوزا نقوده العقلية للدين، وأخضع العلاقة الدينية بين الإنسان والله للبحث والاستقصاء الفلسفي المستفيض مُحَكِّمَاً المعايير العقلية وحدها؟ وهل ظهرت "فلسفة الدين" لأول مرة مع سبينوزا كبحث فلسفي منظم في الدين من حيث هو دين كميدان معرفي مستقل عن سائر فروع الفلسفة؟ أم أن جهود سبينوزا كانت جهوداً تأسيسية وإرهاصات حقيقية وضرورية أدت إلى تأسيس "فلسفة الدين" في صورتها الكاملة مع كانط (Kant) في كتابه "الدين في حدود العقل وحده"، والتي لم تكن لتظهر بهذه الصورة المكتملة لولا سبينوزا وجهوده في هذه المسألة؟

كما لا نغفل عن إشكالية أخرى في فلسفة سبينوزا وهي ميله إلى الغموض، وهو في ذلك مدفوع بالخوف الشديد، والحذر من التصريح بأفكاره. وقد عبر "هيجل" عن غموض سبينوزا ودقته فقال: "لن تكون فيلسوفاً إلا إذا قرأت سبينوزا".

***خطة البحث:**

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة، وفصلين، وخاتمة:

أما **المقدمة:** فقد تناولت فيها أهمية البحث، وأسباب الكتابة فيه، وإشكاليته، وخطة البحث، ومنهج البحث.

وأما **الفصل الأول فهو: السمات العامة لفلسفة سبينوزا.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بسبينوزا.

البحث الثاني: منهج سبينوزا.

المبحث الثالث: فلسفة سبينوزا، والعقلية الديكارتية.

وأما الفصل الثاني فهو: فلسفة الدين عند سبينوزا.

ويتضمن ثمانية مباحث:

المبحث الأول: مفهوم (فلسفة الدين) وتطوره.

المبحث الثاني: وجود الله وصفاته عند سبينوزا.

المبحث الثالث: نقد اسبينوزا للتوراة.

المبحث الرابع: النبوة عند سبينوزا.

المبحث الخامس: نفي القدسية الأبدية لبني إسرائيل.

المبحث السادس: المعجزة.

المبحث السابع: الفرق بين النبي والحواري.

المبحث الثامن: العقل واللاهوت.

ثم **الخاتمة**: وقد عرضت فيها أهم النتائج، والمراجع، والفهرس.

*** منهج البحث:**

لقد اعتمدت في هذا البحث على المنهج التحليلي؛ بغية تحليل النصوص للوقوف على مضامينها الحقيقية، وكذا المنهج النقدي؛ وذلك للوقوف على نقاط القوة والضعف في آراء سبينوزا ونسقه الفلسفي، كما استخدمت المنهج المقارن لمقارنة آراء سبينوزا بآراء ديكارت أو غيره من الفلاسفة السابقين أو اللاحقين على سبينوزا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الأول

(السمات العامة لفلسفة سبينوزا)

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: التعريف بسبينوزا.
- المبحث الثاني: منهج سبينوزا.
- المبحث الثالث: فلسفة سبينوزا، والعقلية الديكارتية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الأول

التعريف بسبينوزا

ولد سبينوزا عام ١٦٣٢م، من أسرة فقيرة من أُسر المجتمع اليهودي في إسبانيا، وقد استطاعت مجموعة من اليهود الإسبان والبرتغاليين أن تفر من الاضطهاد الذي كان سائداً في النصف الأول من القرن السابع عشر، وتعيش في مدينة امستردام متمتعة بمناخ الحرية السائدة في الجمهورية الهولندية، وكان من بين هذه الأسر التي هربت من هذا الاضطهاد أسرة الفيلسوف سبينوزا[١]. ولذا فسوف أتحدث عن قصة التشريد اليهودي وعلاقة اسبينوزا به، ثم نعرّف به وبمؤلفاته.

* أولاً: قصة تشريد اليهود وعلاقتها بسبينوزا:

يتصل عصر سبينوزا وحياته بتاريخ تشريد اليهود، لأن أسرته كانت من الأسر اليهودية في إسبانيا والتي عاشت إبان طرد اليهود منها، وتشتيتهم منها.

ويعطينا المؤرخ "ول ديورانت" صورة عن تشرد اليهود، وصلة ذلك بسبينوزا، فيقول: "إن قصة اليهود منذ تشتيتهم هي إحدى صور التاريخ الأوروبي. لقد طردهم الرومان من القدس عند استيلائهم عليها عام (٧٠ بعد الميلاد)، وتفرقوا عن طريق التجارة والهجرة بين جميع الشعوب وفي جميع القارات...، وسارت هذه الهجرة والحركة الواسعة في اتجاهين، أحدهما عبر الدانوب والراين متجهاً بعدئذ إلى بولندا وروسيا، والثاني نحو إسبانيا والبرتغال التي كانت خاضعة لحكم المسلمين عام (٧١١ ميلادية)، وقد اتجه اليهود في أوربا الوسطى إلى الأعمال التجارية والمصرفية، واستوعبوا في شبه الجزيرة الإسبانية علوم العرب الرياضية والطبية والفلسفية...، لقد لعب اليهود هنا في القرنين الثاني والثالث عشر دوراً هاماً في نقل الحضارات الشرقية القديمة إلى أوروبا الغربية. هنا في قرطبة قام موسى القرطبي[٢] (١١٣٥ –

(١) انظر: جوزايا رويس: روح الفلسفة الحديثة، ترجمة: د. أحمد الأنصاري، مراجعة: د. حسن حنفي، المجلس الأعلى للثقافة، العدد: ٤٦٨، ٢٠٠٣م، ص١٢٨.

(٢) هو أبو عمران بن موسى بن ميمون بن عبد الله القرطبي الأندلسي الإسرائيلي(١١٣٥ . ١٢٠٥م) (٥٣٠ . ٦٠٣هـ)، ولد في قرطبة وتوفي في القاهرة، اسمه بالعبرية هو الراب (الحاخام) موشيه بن ميمون.واشتهر عند العرب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١٢٠٤) أعظم طبيب في عصره بكتابة تعليقاته على التوراة "إرشاد الحائر"، وفي برشلونة أعلن حسداي بن شبروت[١] آراءه الدينية التي هزت الديانة اليهودية بأسرها"[٢].

ثم يتابع "ول ديورانت" قائلاً:"لقد ازدهر اليهود في إسبانيا وجمعوا ثروة، إلى أن قام "فرديناند" بإخراج المسلمين منها، وهنا فَقَدَ اليهودُ في إسبانيا الحرية التي تمتعوا بها وعاشوا في ظلها تحت حكم المسلمين المتساهل المتسامح"، كما يقول "ول ديورانت":" وزحف ديوان التفتيش عليهم، وخيّرهم بين التعميد ومزاولة الشعائر المسيحية، وبين النفي وتجميد أموالهم ....، لقد قبلت الأكثرية الساحقة من اليهود الخيار الأكثر صعوبة، وبحثت عن مكان تلجأ إليه، وركب بعضهم السفن وحاولوا دخول جنوا وموانئ إيطالية أخرى، ولكن لم يسمح لهم بالدخول، وأبحروا إلى أن وصلوا إلى الساحل الإفريقي حيث قتل الكثير منهم لاستخراج المجوهرات من بطونهم التي ساد الاعتقاد بأنهم بلعوها قبل خروجهم من اسبانيا، واستقبل القليل منهم في البندقية "فينيسيا"، ومول آخرون رحلة كولمبوس على أمل أن يجد

بلقب الرئيس موسى، كان فيلسوفاً يهودياً سفاردياً، وكان عالماً موسوعياً تبحر في علوم الدنيا والدين، برع في الفلسفة والطب والرياضيات، لدرجة أن اليهود قالوا: لم يظهر رجل مثل موسى من أيام موسى غير موسى بن ميمون، ولد في قرطبة ببلاد الأندلس في القرن الثاني عشر الميلادي، ومن هناك انتقلت عائلته سنة ١١٥٩ إلى مدينة فاس المغربية حيث درس بجامعة القرويين، ثم انتقلت سنة ١١٦٥ إلى فلسطين، ثم استقر أخر الأمر في مصر وهنا عاش حتى وفاته، عمل في مصر نقيباً للطائفة اليهودية، وطبيباً لبلاط الوزير الفاضل أو السلطان صلاح الدين الأيوبي، وكذلك استطبه ولده الملك الأفضل نور الدين علي، أكبر أولاد السلطان صلاح الدين الأيوبي، كان أوحد زمانه في صناعة الطب، ومتقناً للعلوم، في القاهرة ألف في الطب والفلسفة واللاهوت من أشهرها: "دلالة الحائرين" و "مشناة التوراة".

(١) هو أبو جعفر يوسف بن أحمد بن حسداي بن شبروت الطبيب والشارح اليهودي الشهير (٨٨٢ . ٩٤٢)، عمل وزيراً ومستشاراً للخليفة عبد الرحمن الثالث، في خلافة عبد الرحمن الثالث على قرطبة وهي الفترة الذهبية لليهود في الأندلس، استوزره الخليفة مستشاراً له كان طبيباً في بلاطه وكان من واجبات حسداي إدارة التجارة في المملكة والاتصال بملك الخزر اليهودي، فكان وزيراً للمالية. وقد انتقل من الأندلس إلى مصر، حيث القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية.

(٢) انظر: ول ديورانت: قصة الفلسفة، ترجمة: د/ فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف . بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص١٨٥، ١٨٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لهم وطناً جديداً "[1].

"وركب عدد منهم السفن وأبحروا شمال المحيط الأطلنطي، بين انكلترا المعادية وفرنسا المعادية ليجدوا أخيراً بعض الترحيب في هولندا، ومن بين الذين نزلوا في هولندا نزلت أسرة برتغالية تدعى سبينوزا.

وبعد ذلك أخذت إسبانيا في الانحلال، وازدهرت هولندا باليسر والرخاء، وبنى اليهود أول كنيسٍ لهم في امستردام في عام ١٥٩٨م، وبنوا كنيساً آخر بعد خمس وسبعين سنة ....، وفي نصف القرن السابع عشر احتدم الجدل داخل الكنيس اليهودي عندما كتب "أوريال كوستا" – الذي شعر بتأثير الشك الذي ولده عصر النهضة كغيره من اليهود – كتاباً صغيراً هاجم فيه الاعتقاد بالآخرة هجوماً عنيفاً. لم تكن الناحية السلبية في هذا الكتاب مناقضة للمبدأ اليهودي القديم، ولكن الكنيس أرغمه على التراجع عن أقواله لئلا تثير سخط البلد الذي رحب بهم وأكرمهم، ومعنى التراجع عن أقواله أن يستلقي الكاتب المتكبر على الأرض، مقابل عتبة الكنيس ليمشي جماعة المصلين فوق جسمه لإذلاله، ولكن أوريال ذهب إلى البيت وكتب احتجاجاً شديد اللهجة استنكر فيه مضطهديه وأطلق الرصاص على نفسه.

لقد حدث هذا في عام ١٦٤٠م عندما كان باروخ سبينوزا أعظم الفلاسفة في العصر الحديث طفلاً في الثامنة من عمره، حيث كان التلميذ المحبوب المفضل في الكنيس"[2].

هذه صورة العصر الذي عاش فيه سبينوزا وأسرته اليهودية.

*** ثانياً: حياته، ومؤلفاته:**

ولد باروخ سبينوزا في مدينة أمستردام في سنة ١٦٣٢م من عائلة يهودية إسبانية انتقلت من إسبانيا إلى البرتغال ثم إلى هولندا فراراً من الاضطهاد، حيث كان يوجد في أمستردام عدد كبير من العائلات اليهودية التي هجرت إسبانيا والبرتغال، حين اضطُهدت ومُنعت من

(1) انظر: ول ديورانت: قصة الفلسفة، ترجمة: د/ فتح الله محمد المشعشع، ص١٨٦، ١٨٧.

(2) المرجع السابق، ص١٨٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ممارسة طقوسها الدينية، واضطرت إلى الاختيار بين البقاء واعتناق المسيحية، أو المغادرة عارية من كل ما تملك، وكانت هذه العائلات تؤلف جماعة متعاضدة متماسكة حافظت على لغتها الأصلية، وأسست لنفسها كنيساً خاصاً، ومدارس دينية، وجمعيات خيرية.

وعلى الرغم من بقاء الجالية اليهودية في أمستردام متقوقعة على نفسها إلى حد ما، فإنها لم تستطع أن تصدّ وفود المرتدين الذين كانوا يرغبون في العودة إلى دينهم بعدما اعتنقوا الديانة المسيحية طمعاً في البقاء في إسبانيا والبرتغال، والمحافظة على أملاكهم هناك؛ هؤلاء كان يطلق عليهم اسم "المارانو"، وكانوا عرضة في

هولندا نفسها، لتصلب الأحبار وتزمتهم.

لكن ما من شك في أنهم وجدوا أنفسهم يعيشون في ظل دولة متسامحة إلى أبعد حدّ، وتمنح لمختلف الكنائس والطوائف حرّية غير معهودة في مختلف بلدان أوربا الأخرى".[1]

ووسط هذا المناخ الديني المتحرر نسبياً ولد "سبينوزا"، "ولما شبَّ سبينوزا تلقى العلم في مدرسة يهودية لحاخام مشهور يدعى (مورتيرا) حيث درس التلمود على يديه، ثم تابع دراسته على طريقة الربانيين مع تعلمه اللغة اللاتينية في الخارج، ولما كان شديد الشغف بالعِلم، فقد درس الرياضة والفلك والطبيعة والكيمياء والميكانيكا وغيرها من العلوم".[2]

"وقد لقى سبينوزا تعليمه في المدرسة التلمودية المحلية بأمستردام، إذ ألحقه بها أهله لكي تتوثق ارتباطاته بطائفته اليهودية بتعلم لغتها وتراثها، ومما لا شك فيه أن هذا العمل لم يحقق إلا نتيجة عكسية: إذ إن الطابع اللاهوتي المحافظ لتعليمه في المدرسة قد دفعه إلى الثورة عليه، فضلاً عن أن أهله قد اضطروا إلى البحث عن معلمين آخرين له، لكي يدرس لغات العلم الحديث، ولا سيما اللاتينية"[3].

(1) د. جلال الدين سعيد: سبينوزا والكتاب المقدس، الدين والأخلاق والسياسة، ط١، ٢٠١٧م، الناشر: مؤسسة مؤمنون بلا حدود، ص٧.

(2) انظر: د. محمد غلاب: المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة، دار إحياء الكتب العربية بعيسى البابي الحلبي، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م، ص١١٧، ١١٨ .

(3) د. فؤاد زكريا: سبينوزا، الناشر: مؤسسة هنداوي، ب. ت، ص٢٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"فالتمس دراسة اللغة اللاتينية لدى طبيب يُدعى (فان ده إنده)، مما أضاء في عينيه نوراً جديداً، وساعده على اكتشاف فلاسفة القرون الوسطى، وعلى رأسهم توماس الأكويني[1] وابن ميمون، وفلاسفة عصر النهضة، ومن بينهم مارسيل فيتشينو[2]، وجيوردانو برونو[3]، وفلاسفة العصر الجديد من أمثال بيكون[4] وهوبز[1] وديكارت[2]"[3]، وفي أثناء هذا الظمأ

(1) القديس توماس اكويناس Thomas Aquinas ، بالعربية توما الأكويني (١٢٢٥ . ١٢٧٤م)، فيلسوف ولاهوتي إيطالي كاثوليكي شهير من أتباع الفلسفة المدرسية، هو أحد علماء الكنيسة الثلاثة والثلاثين، ويعرف بأنه العالم الملائكي، اعتبرته الكنيسة عالمها الأعظم، وظلت فلسفته التوماوية لوقت طويل المدخل الفلسفي الأساسي لمقاربة فكر الكنيسة الكاثوليكية. تبنى الأكويني الأفكار التي طرحها أرسطو . الذي دعاه "الفيلسوف" . وحاول المزاوجة بين فلسفته والعقيدة الكاثوليكية ، على عكس العديد من التيارات في الكنيسة الكاثوليكية وقتذاك محاولاً التوفيق بين الفلسفة الأرسطية والمبادئ النصرانية، أشهر أعماله: "أسئلة متنازع عليها حول الحقيقة" و"خلاصة ضد الوثنيين" و"الخلاصة اللاهوتية".

(2) مارسيليو فيسينو، بالإيطالية Marsilio Ficino (١٩ أكتوبر ١٤٣٣ . ١ أكتوبر ١٤٩٩م)، فيلسوف، ومترجم، ورجل دين، ومنجم ، وشاعر، وكاتب، وطبيب، أحد الفلاسفة الإنسانيين الأكثر نفوذاً في عصر النهضة الإيطالية، وأحد علماء الفلك ومحيي الأفلاطونية الحديثة، وكان أول مترجم لأعمال أفلاطون إلى اللغة اللاتينية،وكان صاحب أكاديمية فلورنسا التي كانت محاولة لإحياء مدرسة أفلاطون ذات تأثير كبير على اتجاه وفحوى عصر النهضة الإيطالية وتطور الفلسفة الأوروبية.

(3) جوردانو برونو، بالإيطالية Giordano Bruno (١٥٤٨ . ١٦٠٠م) في روما، كان داس دينى وفيلسوف إيطالي، حكم عليه بالهرطقة من الكنيسة الكاثوليكية. وهو فيلسوف إيطالي شهير، كان راهباً في البداية ولكنه انتقل من الدراسات اللاهوتية إلى الفلسفة فيما بعد. وقد اعتنق نظرية كوبرنيكوس عن دوران الأرض على الرغم من أنها كانت محرمة من قبل رجال الدين آنذاك وذهب إلى أبعد منها أن ذاك بوضعه فرضية أن النظام الشمسي هو واحد من مجموعة نظم تغطي الكون في صورة نجوم وألوهية ولا نهائية الكون، كما افترضت نظريته أن كل من النظم النجمية الأخرى تشتمل على كواكب ومخلوقات عاقلة أخرى.

(4) فرنسيس بيكون، بالإنجليزية Francis Bacon(١٥٦١ . ١٦٢٦م) ولد بلندن، وكان أبوه السر نقولا بيكون حامل الخاتم الأكبر في خدمة الملكة إليزابيث، وفرنسيس بيكون فيلسوف ورجل دولة وكاتب انجليزي، لقب بأبي التجريبية، وهو معروف بقيادته للثورة العلمية عن طريق فلسفته الجديدة القائمة على "الملاحظة والتجربة"، انتقد المنطق الأرسطي منبهاً على عدم جدواه لأنه يعتمد على القياس الذي لم يأت بمعرفة جديدة، حيث تكون النتيجة موجودة في المقدمات. كان بيكون أول شخص يستلم منصب مستشار الملكة الذي منح له في عام ١٥٩٧م، عندما احتفظت به اليزابيث الأولى ملكة انجلترا كمستشار قانوني لها، من أهم آثاره: كتاباً أسماه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى المعرفة التقى بفلسفة ديكارت فعنى بها عناية قوية وبَشَّرَ بها إلى حد أن كان أثرها عليه شديد البروز" [٤].

وهكذا وجد سبينوزا نفسه وهو يعمل مع (فان دن انده) تجاه أنماط فكرية ومذاهب ومبادئ تخالف كل المخالفة ما سبق أن عرفه في محيط أسرته، والعلوم التي عرفها معلموه وزملاؤه في الدراسة[٥].

يقول المؤرخ "ول ديورانت" عن ثقافة سبينوزا وبين هذه الفلسفات التي أثرت فيه واستقى منها معارفه وشكلت فكره: "لقد ملأ تشتيت اليهود هذا عقل سبينوزا، وآثر تمضية وقته في داخل الكنيس اليهودي، منكباً على مطالعة تاريخ قومه ودينهم، وأبدى نبوغاً في دراسته استلفت نظر كبار اليهود، وجعلهم يعلقون عليه آمالاً واسعة في المستقبل، لعله يبث قبساً

:الأورجانون الجديد أو العلامات الصادقة لتأويل الطبيعة" ووضع كتاباً في السياسة دعاه "أتلنتس الجديدة" و "أحكام القانون" وضعه ١٥٩٩م، تمهيداً لتنظيم القوانين الانجليزية. (راجع: يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، ط٥، ص٤٤، ٤٥)

(١) توماس هوبز، بالإنجليزية Thomas Hobbes (١٥٨٨ . ١٦٧٩)، عالم رياضيات وفيلسوف انجليزي، اشتهر بأعماله في الفلسفة السياسية، هو أول الماديين المحدثين، وجاءت الصورة الأولى لفلسفته في كتاب "مبادئ القانون الطبيعي والسياسي"، واشتهر بأعماله في الفلسفة السياسية، نشر كتابه "لاوياثان أو في المجتمع الكنسي والمدني مادة وصورة وسلطة" عام ١٦٥١، والذي كان الأساس لمعظم الفلسفة السياسية الغربية من منظور نظرية العقد الاجتماعي، ولاوياثان هو التنين الهائل المذكور في سفر أيوب، ويقصد به هوبز الحكم المطلق، ويعد هوبز أحد أكبر فلاسفة القرن السابع عشر بانجلترا وأكثرهم شهرة في المجال القانوني، كان هوبر يشتغل بالفلسفة والأخلاق والتاريخ والقانون، وكان مناصراً للملكية المطلقة. (راجع: يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، ص٥١)

(٢) رينيه ديكارت، بالفرنسية Rene Descartes (١٥٩٦ . ١٦٥٠)، فيلسوف فرنسي ، وعالم رياضيات وفيزيائي، يلقب بـ "أبو الفلسفة الحديثة"، وكثير من الأطروحات الفلسفية الغربية التي جاءت بعده، هي انعكاسات لأطروحاته، والتي ما زالت تدرس حتى اليوم، خصوصاً كتاب (تأملات في الفلسفة الأولى١٦٤١م) الذي ما زال يشكل النص القياسي لمعظم كليات الفلسفة. وديكارت هو الشخصية الرئيسية لمذهب العقلانية في القرن ١٦ الميلادي، كما كان ضليعاً في علم الرياضيات، فضلاً عن الفلسفة، وأسهم إسهاماً كبيراً في هذه العلوم.

(٣) د. جلال الدين سعيد: سبينوزا والكتاب المقدس، الدين والأخلاق والسياسة، ص٨، ٩ .

(٤) د. محمد غلاب: المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة، ص١١٧، ١١٨ .

(٥) أندريه كريسون: سبينوزا، ترجمة: تيسير الشيخ الأرض، دار الأنوار، مكتبة العباسية . دمشق، ص١١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من النور في بني قومه، وسرعان ما انتقل من قراءة التوراة ذاتها إلى تعليقات التلمود (مجموعة شرائع وسنن وتقاليد اليهود) ومنها إلى كتابات ابن ميمون، وليفي بن جيرسون[1]، وابن عزرا[2]، وحسداي بن شبروت، وامتد نهمه في المطالعة إلى فلسفة ابن جبريل الصوفية، وفلسفة موسى القرطبي الصوفية المعقدة. وتأثر بما ذهب إليه موسى القرطبي من وحدة الله والكون، واطلع على آراء بن جيرسون الذي قال بأبدية العالم، وحسداي الذي اعتقد أن الكون المادي هو جسم الله، وقرأ في ابن ميمون بحثاً في نظرية ابن رشد بأن الخلود لا يتعلق بالأشخاص، ولكنه وجد في كتاب "إرشاد الحائر" حيرة أكثر من الإرشاد، لأن الحاخام الأعظم أثار فيه أسئلة أكثر من الأجوبة، إن أبرع حماة الدين هم أشد أعدائه، لأن آراءهم تولد الشك وتحفز العقل، وإذا كان هذا يصدق على كتابات ابن ميمون فإنه يصدق أكثر على كتابات ابن عزرا، حيث أثيرت مشاكل الديانة اليهودية بطريقة مباشرة أكثر، وفي بعض الأحيان كانت تترك على أساس تعذر الإجابة عليها، وكلما زاد سبينوزا في مطالعته وتأملاته كلما تلاشت اليقينيات في نفسه وتبددت وتحولت إلى شك وحيرة. وقد دفعه

(1) الحاخام ليفي بن جرشون، المعروف باسمه اللاتيني جرسونيدس، بالفرنسية: Gersonide ، وبالعبرية: Levi ben Gershom (١٢٨٨ . ١٣٤٤)، هو لاوي بن جرشون، فيلسوف وعالم تلمودي ورياضي وفلكي، كان عالماً في الدين اليهودي، كما كان عالماً في الرياضيات والفلك، ولد في بانيول في لانغيدوك، فرنسا، وعاش في بروفانس بفرنسا، وتأثر بكتابات أرسطو من خلال تعليقات ابن رشد. أهم مؤلفاته سفر ملاحم الرب. توفي في بيربينيا بفرنسا ١٣٤٤م.

(2) الحاخام إبراهيم بن مئير ابن عزرا، يعرف أيضاً بابن عزرا وباللغات الأوربية بأبنيزرا . Abenezra، عاش ما بين ١٠٩٢م و١١٦٧م، وهو واحد من أكثر علماء اليهود وأدبائهم شهرة في العصور الوسطى، برع في الفلسفة وعلم الفلك والتنجيم والطب والشعر وعلم اللغات والتفسير، ولذلك لقب بالحكيم وبالطبيب الماهر. ولد في بلدة تطلية النافارية التي تقع اليوم ضمن ولاية نافار في إسبانيا أثناء حكم المسلمين للأندلس، تنقل بين شمال أفريقيا ومصر وفلسطين وإيطاليا وفرنسا وانجلترا، عاد مجدداً إلى جنوب فرنسا حتى توفي هناك عام ١١٦٧م في مكان غير محدد. سادت الأفكار الأفلاطونية الحديثة على قناعاته الفلسفية، قام بشرح أجزاء من الكتاب المقدس (كتاب التوراة وكتب أنبياء اليهود) وفي النسخة الكبيرة من كتاب اليهود المقدس وضعت تعليقات وتفسيرات في حاشية الكتاب لكبار حاخامات اليهود وعلمائهم ومن بينها تعليقات ابن عزرا، وقد ساهمت شروحه تلك بإغناء الفلسفة في الديانة اليهودية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حب الإطلاع إلى معرفة ما كتبه مفكرو العالم المسيحي حول هذه القضايا العظيمة عن الله ومصير الإنسانية، وبدأ يدرس اللغة اللاتينية على يد عالم هولندي يدعى "دناندي"، ودخل بذلك إلى مجال أوسع من التجربة والمعرفة، لقد كان في معلمه الجديد بعض الإلحاد والهرطقة، ...، على كل حال فقد تغلب على اللغة اللاتينية وأجادها، ودخل عن طريقها إلى تراث الفكر الأوروبي في العصور الوسطى والقديمة. ويبدو أنه درس سقراط وأفلاطون وأرسطو ولكنه كان يفضل عليهم أعاظم فلاسفة الذريين، ديمقريطس، وأبيقور، وليو كريتس. كما ترك الرواقيون فيه أثراً لا يندثر. وقرأ الفلاسفة المدرسيين ولم يأخذ عنهم علم الاصطلاحات الفنية فحسب بل أخذ عنهم أيضاً طريقتهم الهندسية في عرض البداية والتعريف والقضية والبرهان والحاشية والنتيجة. كما درس فلسفة برونو ذلك الثائر العظيم الذي طاف متنقلاً من بلد إلى بلد، ومن عقيدة إلى عقيدة، وكان دائماً يخرج من نفس الباب الذي دخل منه باحثاً متعجباً، والذي حكمت عليه محكمة التفتيش بالموت بغير إراقة دمه وذلك بأن يحرق حياً.أي ثروة من الأفكار والآراء كانت في هذا الفيلسوف الإيطالي الثائر أولها، فكرة وحدة الوجود العظيمة، كل الحقيقة واحدة في العنصر، واحدة في العلة، واحدة في الأصل، والله وهذه الحقيقة شئ واحد واعتقد برونو أيضاً بأن العقل والمادة شئ واحد، وكل ذرة من الحقيقة تتألف من عنصر مادي وعنصر روحي غير منفصلين، لذلك فإن موضوع الفلسفة هو إدراك وحدة الوجود في تعدد مظاهره والعقل في المادة، والمادة في العقل. وإيجاد التركيب الذي تتقابل فيه الأضداد والمتناقضات وتندمج. والارتفاع إلى ذروة المعرفة عن الوحدة الكلية التي تتساوى فكرياً مع محبة الله، لقد أثر كل رأي من هذه الآراء على تفكير سبينوزا.

وأخيراً فقد تأثر سبينوزا أشد الأثر بفلسفة ديكارت واضع التقليد الذاتي والمثالي، كما كان بيكون واضع التقليد الموضوعي والواقعي في الفلسفة الحديثة" [1].

(1) انظر: ول ديورانت: قصة الفلسفة، ترجمة: د/ فتح الله محمد المشعشع، ص١٨٨ ، ١٨٩ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رأينا فيما سبق الروافد التي ترجع إليها فلسفة سبينوزا وهي عديدة بالإضافة إلى الروافد اليهودية، النابعة من الثقافة اليهودية في العصر الوسيط، لأنهم لم يكن لهم فلسفة إلا بعد ظهور الإسلام، بل إن فلاسفتهم كموسى ابن ميمون، وابن جبرول، يدرج ضمن فلاسفة الإسلام، تأثر سبينوزا بهؤلاء[1]، وهؤلاء بدورهم أخذوا وتأثروا بالفلاسفة المسلمين كابن سينا والفارابي وابن رشد والغزالي كما تأثروا بمتكلمي الإسلام، كالمعتزلة والأشاعرة والماتردية. هذه هي المقدمات العقلية التي استقى منها سبينوزا أفكاره.

وبعد أن قرأ فلسفة ديكارت وكذلك جيوردانو برونو وغيرهما من فلاسفة محدثين ومدرسيين "ازداد ابتعاداً عن اليهودية، ورأى زعماؤها أن يستبقوه في حظيرتها وعرضوا عليه مرتباً، فرفضه. واعتدى عليه رجل متعصب وجرحه بخنجر، فلم ينثن، فأعلن الزعماء فصله من الجماعة عام ١٦٥٦م، وحصلوا من السلطة المدنية على أمر بإقصائه عن المدينة إذ كانت البروتستانت أيضاً يعدونه رجلاً خطراً"[2].

"قادته هذه الدراسات الجديدة وما نجم عنها من تأملات إلى التخلص شيئاً فشيئاً من العقيدة اليهودية، وعند ذلك بدأت الجماعة الإسرائيلية تضطهده، وأخيراً أصدرت عليه حكمها بالتجريد الكامل من الحقوق الدينية، وكان ذلك في سنة ١٦٥٦م. وعلى أثر ذلك تخلى عن ميراثه في والده وتعلم صناعة المناظير وجعل يعيش منها، فوجدت صنعته رواجاً عظيماً كفاه شر الحاجة، وكان قنوعاً سامي النفس أبياً إلى حد أن رفض كل المساعدات المخلصة التي عرضها عليه ذوو الجاه والسلطان من أصدقائه. ومنذ سنة ١٦٦١م انسحب إلى الأرياف ليوالي تأملاته في هدوء، وهناك ذاعت شهرته، وكثرت رسائل الخاصة إليه، وتضاعف زواره من صفوة ذوي المناصب العليا مثل "جان دي ويت" رئيس الدولة الهولاندية، و"ليبنتز"، ولقد حاول الأمير "دي كونديه"، أحد أعضاء الأسرة المالكة في فرنسا إذ ذاك مقابلته ولكنه لم يوفق، ولقد عرض عليه كرسي الفلسفة في جامعة هيديلبيرج

(١) إن قضية تأثر الفلسفة اليهودية بالفلسفة الإسلامية بوجه عام لاشك فيها، أما ما ذهب إليه ول ديورانت إلى القول بتأثر اسبينوزا بالفلسفة الإسلامية فهو مما يستأنس به وليس بدليل قاطع، والمسألة تحتاج إلى بحث.

(٢) يوسف كرم: الفلسفة الحديثة، طبعة دار المعارف، الطبعة الخامسة، ص١٠٦

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في ألمانيا، ولكن حياته كانت قصيرة، إذ كان نحيفاً، هزيل التكوين فأصيب بالسل، وقد زادت المشاغل البدنية والشواغل العقلية المتواصلة من خطورة هذا المرض فتوفي في سنة ١٦٧٧م، وكانت سنه أربعاً وأربعين سنة"[١].

اتصف سبينوزا بالعديد من الصفات النبيلة، والأخلاق الرفيعة، فلم يكن من طالبي الدنيا أو الثراء الفاحش ولكن حياته تشبه حياة الزهاد.

"كان سبينوزا يشبه الحكماء المتقدمين في ترفعه عن أعراض الحياة، فتخلى عن الثروة والجاه والسلطان ليتجنب الاستعباد الذي تفرضه على العقل فتخرج به عن دائرة الفكر المجرد، وتجعله يعيش غريباً عن موطنه الحقيقي وهو موطن التأمل والنظر، ولكنه لم يكن لهذا من المتنسكين الذين يفضلون آلام الجسم ويؤثرون الحرمان وشظف العيش أو يقولون بالتضحية التي لا تدعو إليها الضرورة الملحَّة، كلا وإنما كان يأخذ بحظه من الحياة الباسمة السعيدة ما دامت في حدود الكرامة والسمو، وهو في هذا يقول: أنا أجتهد في أن أمضي حياتي في الهدوء والسرور والمرح، لا بين الأحزان، ولا في وسط الأنات والآهات.كان وديعاً لين الجانب، مسالماً، ولكنه كان متبصراً محتاطاً في معاشرته فيتجنب كل اختلاط مع الذين يحس أنهم يباينون طبيعته بقدر ما كان يمتزج . إلى حد بعيد . بالذين تقترب أفكارهم من أفكاره، وكان يدرك معنى الصداقة التي طالما حلم بها الحكماء القدماء وأطروها في كتبهم، وهي الصداقة المؤسسة على الحكمة وحدها، ولم يكن هذا إلا أثراً من آثار أشعة فلسفته النظرية على مسلكه العملي، لأن الحكمة عنده لم تكن مجرد شهوة اطلاع وإنما كانت مبعث قانون السير في الحياة العملية"[٢].

يقول (برتراند رسل) عن سبينوزا: "هو أنبل وأحب الفلاسفة الكبار. ولقد تخطاه بعضهم في الجانب العقلي، ولكنه أعلاهم قدراً في الجانب الأخلاقي، وكنتيجة طبيعية اعتبر أثناء حياته وإلى قرن من الزمان بعد مماته شراً مروعاً، ولد يهودياً ولكن اليهود حرموه من الانتماء

(١) د. محمد غلاب: المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م، ص١١٧، ١١٨ .

(٢) المرجع السابق: ص١١٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إليهم، وقد مقته المسيحيون أيضاً مقتاً شديداً، ورغم فلسفته بأسرها تهيمن عليها فكرة الله، فقد اتهمه أصحاب العقيدة التقليديون بالكفر. "وليبتز" الذي يدين له بالكثير أخفى دينه له، وامتنع في حذر أن ينبس بكلمة ثناء عليه، بل لقد مضى إلى حد الكذب بصدد معرفته الشخصية باليهودي الهرطقي،...، وقد تربى هو في كنف التعاليم اليهودية، ولكنه وجد من المستحيل أن يظل محافظاً عليها، وقد عرض عليه ١٠٠٠ فلورين في السنة ليحجب شكوكه، وحين رفض جرت محاولة لاغتياله، وحين فشلت لعن بجميع اللعنات، ...، كانت مطالبه قليلة وبسيطة، وأظهر خلال حياته لامبالاة نادرة بالمال، والقليلون الذين عرفوه أحبوه، حتى ولو كانوا غير راضين عن مبادئه، وقد قضى بالسل الرئوي في مقتبل العمر، وهو في الثالثة والأربعين"[١].

أما مؤلفاته:

لقد اتخذ سبينوزا من اللاتينية لساناً يحرر به، وكان أول ما كتب (١٦٦٠م) رسالة "في مبادئ الفلسفة الديكارتية" مبرهنة عليها بالأسلوب الهندسي، الذي نشر عام ١٦٦٣م، ويعد هذا العمل كتمهيد ومدخل لفلسفته الخاصة، ثم عرض فلسفته في "الرسالة الموجزة في الله والإنسان وسعادته"، التي كتبها عام ١٦٦٠م ولم تنشر. وقد ضاع الأصل وبقيت ترجمتان هولنديتان نشرتا عام ١٨٥٢م، ثم وضع رسالة في "إصلاح العقل" وهي بمثابة مقدمة في المنهج وفي قيمة المعرفة، وكان يهدف من كتاباته الاستغناء عن منطق أرسطو وإقامة المنهج العلمي. ولما اشتد الجدل حول مسائل الوحي والنبوة والمعجزات وحرية الاعتقاد، كتب في ذلك "الرسالة اللاهوتية السياسية" عام ١٦٦٥م، ومع ذلك لم تنشر إلا عام ١٦٧٠م، و "الرسالة السياسية" التي نشرت بعد وفاته، ثم كتب "الأخلاق" وهو أهم وأعظم مؤلفاته على الإطلاق[٢].

(١) برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث "الفلسفة الحديثة"، ترجمة: د.محمد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م، ص١٢٠، ١٢١ .

(٢) راجع: يوسف كرم: الفلسفة الحديثة، ص١٠٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونستطيع أن نعدد مؤلفات سبينوزا على النحو التالي:

١. **مبادئ فلسفة ديكارت**، وقد ظهر في سنة ١٦٦٣م.

٢. **رسالة الإله**، ويبدو أنه تأثر فيها بـ "جيوردانو برونو" وإن لم يكن قد ذكر اسمه ولم يعثر على هذه الرسالة إلا في سنة ١٨٦٢م.

٣. **الرسالة الإلهية السياسية، أو رسالة في اللاهوت والسياسة**، في سنة ١٦٧٠م، وفيها يخلع على النصوص المقدسة تأويلاً عقلياً وتاريخياً محضاً[١]. يقول برتراند رسل عن هذه الرسالة: "رسالة في السياسة اللاهوتية" وهي جمع غريب بين نقد الإنجيل وبين النظرية السياسية" [٢]

٤. **الرسالة السياسية:** وهي تتناول النظرية السياسية فقط. [٣]، ونظرية "سبينوزا" السياسية مستمدة أساساً من "هوبز"، رغم الاختلاف الضخم في المزاج بين الرجلين، فهو يأخذ بأنه في حالة الطبيعة ليس ثمة صواب أو خطأ، لأن الخطأ يتمثل في عدم إطاعة القانون، وهو يسلم بأن الملك لا يمكن أن يخطئ، ويتفق مع "هوبز" في أن الكنيسة ينبغي أن تخضع للدولة خضوعاً تاماً، وهو ضد كل ثورة، حتى على حكومة سيئة، ويستشهد بالاضطرابات في انجلترا كدليل على الضرر الذي ينجم عن المقاومة العنيفة للسلطة، ولكنه يخالف "هوبز" في ظنه أن الديمقراطية هي الشكل "الطبيعي للغاية" للحكومة، وهو يخالفه أيضاً حين يذهب إلى القول بأن المواطنين ينبغي ألا يتخلوا عن جميع حقوقهم للملك، وهو يرى بوجه خاص أهمية حرية الرأي، ولست أعرف تماماً كيف يوفق بين هذا وبين الرأي القائل بأن المسائل الدينية ينبغي أن تحسم فيها الدولة، وأظن أنه حين يقول هذا يعني أنها ينبغي أن تحسم فيها الدولة أكثر مما تحسم

(١) د. محمد غلاب: المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة، ص١١٨، ١١٩ .

(٢) برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث "الفلسفة الحديثة"، ترجمة: د.محمد فتحي الشنيطي، ص ١٢١ .

(٣) المرجع السابق، ص ١٢١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكنيسة، وفي هولندا كانت الدولة أشد تسامحاً بدرجة أكبر من الكنيسة[1].

٥. **الأخلاق**، وهو أهم كتبه وأعظمها قيمة ولم ينشر إلا بعد موته، وهو يتألف من خمسة أجزاء، وقد أنشأه على الطريقة الرياضية كأنه رسالة في الهندسة تعالج سلسة من الحقائق البديهية والمصادرات والحدود والقضايا والبراهين، وهو يعرض فيه فلسفته وادعاءه أنه لا يزعم لمذهبه الأحقية إلا لسيره حسب هذا التسلسل المتين الموجود فيه من التعقلات غير الشخصية، وتلك الدعوى تصير هذا الكتاب الذي يعالج الحياتين: الأخلاقية والدينية فريداً في بابه[2]. وينقسم هذا الكتاب إلى خمس كتيبات أو خمس كتب صغيرة، الأول منها "في الله"، والثاني "في النفس، طبيعتها وأصلها"، والثالث "في الانفعالات، أصلها وطبيعتها" والرابع في "عبودية الإنسان أو في قوة الانفعالات"، أما الخامس والأخير " في قوة العقل أو في حرية الإنسان" ولم ينشر كتاب الأخلاق إلا بعد وفاته عام ١٦٧٧م"[3].

٦. **رسالة في إصلاح العقل**، وهذه الرسالة تعتبر تمهيد لعلم الأخلاق عند اسبينوازا، "فإنه يجوز النظر إلى الرسالة في إصلاح العقل على أنها رسالة إعدادية يمهد بها صاحبها لمشروعه الأخلاقي ويحث على البحث ويحث على البحث عن الخير الأعظم، وعلى هذا الاعتبار فإنه لا ينبغي لغايات هذه الرسالة المنهجية والمعرفية أن تخفي عنا مقاصدها الأخلاقية"[4].

(1) المرجع السابق: ص١٢٢.

(2) د. محمد غلاب: المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة، ص١١٨، ١١٩ .

(3) د. علي عبد المعطي محمد: تيارات فلسفية حديثة، دار المعرفة الجامعية . الاسكندرية، ١٩٨٤م ، ج١، ص١٦٤.

(4) مقدمة د. جلال الدين سعيد، وترجمته: لرسالة في إصلاح العقل، لسبينوزا، دار الجنوب للنشر، تونس، ١٩٩٠م، ص١٨ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الثاني

منهج سبينوزا

يعتمد (سبينوزا) في منهجه على تطهير العقل من المعرفة غير العلمية، والناقصة، وغير الكافية، لأننا لا نستطيع معرفة الأشياء إلا بعد أن نطهر العقل من هذه المعرفة؛ حتى يستطيع الإنسان الاهتداء إلى المعرفة الحقيقية.

ووسيلته في تطهير العقل هي التمييز بين أربعة أنواع من المعرفة، أولها: المعرفة التي تأتي عن طريق السماع، مثل معرفتي بتاريخ ميلادي، وهي معرفة غير علمية لا تتصف باليقين، وثانيها: المعرفة التي تأتي عن طريق الخبرات الغامضة الناقصة، وثالثها: المعرفة الاستدلالية، وهي المعرفة التي نستنتج فيها شيئاً من شيء آخر، ولكنها ليست كافية، ورابعها: المعرفة الحدسية، وهي المعرفة التي يدرك فيها الشيء بماهيته أو بعلته القريبة، وذلك مثل ٢+ ٣= ٥ ، أو الخطان الموازيان لثالث متوازيان.

فيقول (سبينوزا): "قبل كل شئ يجب التفكير في وسيلة شفاء العقل وتطهيره لكي يجيد معرفة الأشياء هذه الوسيلة هي التمييز بين ضروب المعرفة وتقدير قيمة كل منها لأجل الاهتداء إلى المعرفة الحقة، هناك معرفة سماعية تصل إلينا بالفعل، مثل معرفتي تاريخ ميلادي ووالدي وما أشبه ذلك، وهي معرفة غير علمية، فإذا صرفنا النظر عنها، انحصرت المعرفة في ثلاثة ضروب: الضرب الأول: معرفة بالتجربة المجملة أو الاستقراء العلمي، وهي إدراك الجزئيات بالحواس على ما يتفق بحيث تنشأ في الذهن إفكار عامة من تقارب الحالات المتشابهة مثل معرفتي أني سأموت لكوني رأيت أناساً مثلي ماتوا، وأن الزيت وقود للنار، وأن الماء يطفئها.

هذه المعرفة متفرقة مهلهلة، وأصل اعتقادنا بهذه الأفكار وأمثالها، أننا لم نصادف ظواهر معارضة لها، دون أن يكون لدينا ما يثبت لنا عدم وجود مثل هذه الظواهر، الضرب الثاني معرفة عقلية استدلالية تستنتج شيئاً من شئ، كاستنتاج العلة من المعلول دون إدراك النحو الذي تحدث عليه العلة المعلول، أو هي معرفة تطبق قاعدة كلية على حالة جزئية، كتطبيق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

معرفتي أن الشئ يبدو عن بعد أصغر منه عن قرب، على رؤيتي للشمس، فأعلم أن الشمس أعظم مما تبدو لي هذه المعرفة يقينية، ولكنها هي أيضاً متفرقة لا رابطة بين أجزائها، الضرب الثالث: معرفة حدسية تدرك الشئ بماهيته أو بعلته القريبة، مثل معرفتي أن النفس متحدة بالجسم لمعرفتي ماهية النفس أو مثل معرفتي خصائص شكل هندسي لمعرفتي تعريفه، وأن الخطين الموازيين لثالث

متوازيان، هذه المعرفة الأخيرة هي الكاملة لأن موضوعاتها معان واضحة متميزة يكونها العقل بذاته"[1].

ويذهب الفكر بسبينوزا هنا إلى ما للفهم من قدرة، من تلقاء ذاته على تكوين أفكار حقه في العلوم الرياضية؛ فالفهم ينطلق من أفكار بسيطة، من غير الممكن إلا أن تكون حقة، لأنه من المحتم ، بحكم بساطتها، أن تكون متعينة تمام التعين؛ ومن قبيل ذلك الامتداد والكم والحركة، وهو يصطنع أفكاراً مركبة بربطه بين أفكر بسيطة، ومن قبيل ذلك فكرة الكرة، المتولدة من دوران نصف دائرة حول قطرها؛ وكل فكرة من هذه الأفكار هي ماهية متعينة أتم التعيين، لا تحيج الذهن أبداً إلى الأخذ ببديهيات كلية ومجردة[2].

وقد ضمن سبينوزا فلسفته في ثلاثة من كتبه، وهي: "إصلاح العقل، والأخلاق، والرسالة اللاهوتية، وأصحها كتاب الأخلاق، فإنه جامع يلخص الكتب السابقة ويكملها وقد نهج فيه المنهج الهندسي، وهو المنهج اللائق بمذهب وحدة الوجود الذي ينزل من الواحد إلى الكثير، والكتاب مقسم إلى خمس مقالات: الأولى في الله، والثانية في النفس، طبيعتها وأصلها، والثالثة في الانفعالات أصلها وطبيعتها، والرابعة في عبودية الإنسان أو في قوة الانفعالات، والخامسة في قوة العقل أو في حرية الإنسان فالأخلاق موضوع المقالتين الأخيرتين"[3].

(1) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، ص١٠٨. ١٠٩ . وانظر: ول ديورانت: قصة الفلسفة، ص٢١٠.

(2) اميل برهية: تاريخ الفلسفة، ج٤، القرن السابع عشر، ترجمة : جورج طرابيشي، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت . لبنان، ١٩٨٣م، ص٢٠٢ .

(3) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، ص١٠٧ ، د/ علي عبد المعطي: تيارات فلسفية حديثة، دار المعرفة الجامعية . الاسكندرية، ١٩٨٤، ص١٨٥ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولكن سبينوزا أطلق هذا الاسم على الكتاب كله لأن غاية النظر عنده العمل، ولأن اتجاهه الأساسي أخلاقي كما هو الحال عند الرواقيين، والطريقة القياسية فيه مفتعلة يتناول الفيلسوف الظواهر المعلومة بالملاحظة الظاهرة أو الباطنة، وهي كثيرة فيحولها إلى نتائج أقيسة تحويلاً صناعياً، ويضع لذلك تعريفات هي أحرى بأن تكون مطالب تقتضي البرهان من أن تكون مقدمات مسلمة للبرهان؛ ومن المبادئ والتعريفات ما يعارض بعضه بعضاً، مثال ذلك: لكي يبرهن على أن الجوهرين المتغايرين لا يحدث أحدهما الآخر، يستند إلى مبدأ يقول إن شيئين ليس بينهما شئ مشترك، بل أحياناً يجئ البرهان على نقيض المطلوب[1].

كان سبينوزا استنباطي بامتياز، والتعبير النهائي عن فلسفته هو كتابه (الأخلاقيات المبرهن عليها في نظام هندسي) الذي كتب باللغة اللاتينية في القرن السابع عشر ولكنه لم ينشر إلا في عام ١٦٧٧م بعد وفاته، وفيه أعلن سبينوزا نظاماً فلسفياً كلياً يسير في موازاة هندسة إقليدس. فالتعريفات مُدْرَجة والبديهيات موضوعة ثم هناك العدد الكبير من (القضايا) و(الاستنتاجات) المبرهن عليها بالتفكير الذي يسوّغه في كل مرحلة أنه ينجم بطريقة متدرجة عن التعريفات والبديهيات، وكما يوحي العنوان فإن هدف سبينوزا هو إعطاء الشرح للخير بالنسبة إلى الإنسان، وفي الأجزاء الأخيرة من العمل نجد شرحاً مفصلاً للعواطف والانفعالات الإنسانية ولطبيعة الحرية. ولكن الجزء الأول والأشهر من العمل ينشئ نظرية ميتافيزيقية في الكون من المبادئ الأولى بدءاً بما يراه سبينوزا الفكرة الأساسية وهي فكرة الجوهر[2].

إن المذهب السبينوزي، إذا أخذناه في جملته ، مذهب في الخلاص عن طريق معرفة الله. فهدف الفلسفة التحري عن خير قابل لأن يتناقل ويكون اكتشافه مصدر فرح سام ومتصل إلى الأبد ومن ثم لا يبدو للوهلة أنه يمضي في خط فلسفة ديكارت وفلسفة بيكون اللتين

(١) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، ص١٠٧ - ١٠٨ .

(٢) جون كوتنغهام: العقلانية فلسفة متجددة، ترجمة: محمود محمد الهاشمي، الناشر: مركز الإنماء الحضاري، حلب، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، ص٥٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نحتا جانباً مسألة المصير النهائي للإنسان لتتركا أمره للإيمان؛ وإنما تشابه السبينوزية من الناحية الخارجية واحداً من تلك المذاهب التيوصوفية ذات الأصل الأفلاطوني المحدث التي نلتقيها على مر التاريخ"[1].

نخلص مما سبق:

أن فكر سبينوزا يقوم على أساس ثابت، سواء في موقفه من الدين والأخلاق أو السياسة ، هو اعتماده على المعرفة العقلية الحدسية، حيث يعتبر المعرفة التجريبية هي معرفة مهلهلة لا رابط لها، وكذلك المعرفة العقلية الاستدلالية، وهي الانتقال من الكلي إلى الجزئي، وهي أيضاً معرفة لا يمكن الاعتماد عليها لأننا نفتقد فيها أهم ميزتين للمعرفة اليقينية وهي الوضوح والتميز، وبهذا يتابع ديكارت في اعتباره أن الحدس هو الطريق الوحيد المؤدي إلى المعرفة اليقينية، لقد تصورت فلسفة سبينوزا العالم على أنه وحدة عضوية مطابقة لحياة الكائن الحي، ويمثل سبينوزا الموجودات وعلاقتها بالكون، كالعلاقة الماثلة بين الأعضاء لجسم الإنسان، فالعين والأذن مثلاً رغم أن كل منها حاصلة على وظائف تنفرد بها عن الأخرى، إلا أنها مع ذلك يتوقف وجودها وممارستها لوظائفها المحددة لها، في ارتباطها بهذا الكل التي هي أجزاء منه[2].

"وقد أنكر سبينوزا أن يشتمل الكون على أية حوادث عارضة (غير ضرورية) مهما كانت إذ ليس في الكون شيء عارض، ولكن كل الأشياء مشروطة بأن توجد وتعمل على نحو خاص بضرورة الطبيعة الإلهية، وهذا ينجم بالضرورة عن واحدية سبينوزا؛ لأن كل ما يوجد إنما هو مظهر للجوهر الواحد الذي هو الله. وبما أن ذلك الجوهر ذاتي العلة وحر الإرادة بالضرورة فإن كل صفاته يجب أن تنشأ من جوهره أو طبيعته. ومن ثم فكل الأشياء مشروطة بضرورة الطبيعة الإلهية لا لتوجد فقط بل كذلك لتوجد وتعمل بطريقة خاصة،

(1) اميل برهيه: تاريخ الفلسفة، ج٤، القرن السابع عشر، ص٢٠٣.

(2) د. علي عبد المعطي: تيارات فلسفية حديثة، ص١٨٧ . ١٨٨ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وليس هناك شيء عارض"[1].

إن القاعدة المنهجية لا تنهي سبينوزا عن استنباط العالم المحسوس، كما تشاء الميتافيزيقا الفيضية فحسب بل تمنعه أيضاً من أن يتطلع على منوال فيلسوف مثل أفلوطين الذي كان يشتق من الواحد علماً معقولاً إلى استنباط جملة الأشياء الثابتة إذ إن تصور كل شيء في آن معاً يتعدى بكثير قوى الفهم البشري وكما تستنبط الحقائق في الرياضيات واحداتها من الأخرى بدون أن يكون لسلسة من نهاية أبداً وبدون أن تؤلف أيضاً كلاً واحداً لا يرى سبينوزا في كل شيء من تلك الأشياء الثابتة سوى حلقة في سلسلة أو آن من آناء تقدم، لا جزءاً من كل لكن كما في الرياضيات أيضاً لا يمضي الاستنباط السبينوزي على غير هدى بل هو استنباط موجه نحو حل المسألة التي كانت منطلقة أعني مسألة الطبيعة البشرية وقدرتها واتحادها بالله[2].

معالم المنهج الهندسي عند سبينوزا:

لقد كان سبينوزا يعتقد أن الرياضيات هي المفتاح لحل ألغاز الكون وكشف أسراره ومعرفة قوانينه، واتخذ الهندسة نموذجاً بنى عليه فلسفته، كما أن الهندسة تبدأ بقضايا صادقة بذاتها، كذلك فإن البحث عن الحقيقة ينبغي أن يبدأ بقضايا صادقة بذاتها، لبناء المعرفة البشرية التي ترمي إلى تحقيق سعادة قصوى دائمة متصلة بالناس جميعاً.

ويوظف سبينوزا الهندسة في عرض أفكاره، إذ يبدأ بالتعريف، ثم يذكر النظرية، ثم يتبعها بالبرهنة عليها، ويستخدم المصطلحات المستعملة في الهندسة والرياضيات لعرض مذهبه الفلسفي.

فللمنهج الهندسي عند سبينوزا قيمة كبيرة، فهو تأكيد على الروح العلمية في فلسفته، ولهذا المنهج الهندسي عنده دلالتان: أن المنهج الهندسي منهج فلسفي لاسبينوزا، وأنه طريقة مصطنعه للتعبير عند اسبينوزا.

(1) جون كوتنجهام: العقلانية فلسفة متجددة، ص٦٨ .

(2) اميل برهيه: تاريخ الفلسفة، ج٤، القرن السابع عشر، ص٢٠٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد آثر سبينوزا استخدام المنهج الهندسي كمنهجاً فلسفياً، لأسباب:

١. أنه رآه أفضل وسيلة للتعبير عن الأفكار الفلسفية لكونها أكثر يقيناً.

٢. أراد أن يتجنب الأساليب البلاغية والكتابة المسترسلة.

٣. يتفق مع المعقولية والإيمان بالعلم اللذان يظهران في فلسفته بجلاء.

٤. يتفق المنهج الهندسي مع نظريته عن الحقيقة فهو يرى الحقيقة هي معيار ذاتها، والفكرة تستمد صحتها من ذاتها.

٥. يرى أن علاقة الله بالعالم كعلاقة المعطيات بالبراهين الرياضية، فالعلاقة ليست خلق، وإنما هي تلازم بين علة ومعلول.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الثالث

فلسفة سبينوزا، والعقلية الديكارتية

لم تكن فلسفة سبينوزا العقلانية منفصلة عن سابقتها من الفلسفات العقلانية التي كان لها تأثير واضح وجلي في العصر الحديث، فكانت معظم أسس فلسفته تعود في أصلها إلى تأثره بالفيلسوف ديكارت (١٥٩٦ . ١٦٥٠م) هذا الأخير الذي يذهب الكثير من الفلاسفة المحدثين والمعاصرين إلى اعتباره أبو الفلسفة الحديثة وهو مؤسس الفكر الحديث من خلال العديد من الأعمال التي قدمها، كما أنه بيَّن فكرة توحيد البشر في العقل، حيث يقول "ديكارت": "إذ بخصوص العقل أو الصواب، لا سيما وهو الشيء الوحيد الذي يجعل منا بشراً ويميزنا عن الحيوانات، فإني أحبذ الاعتقاد بأنه تام في كل منا، متبعاً في ذلك الرأي السائد لدى الفلاسفة الذين يقولون أنه لا تفاوت إلا بين الأعراض لا بين صور أفراد النوع الواحد أو طبائعها"[١]. إلا أن هذه الفلسفة لم تكن مختلفة عن سياق الفلسفات السابقة إلا من خلال المنهج المعتمد عليه.

ويشير ديكارت الذي تمثل فلسفته حداً فاصلاً بين الفلسفة القديمة والحديثة إلى (المنهج) الذي وضعه، والذي يعرفه بأنه "القواعد الوثيقة والسهلة تمنع مراعاتها الدقيقة من أن يؤخذ الباطل على أنه حق، وتبلغ بالنفس إلى المعرفة الصحيحة بكل الأشياء التي تستطيع إدراكها، دون أن تضيع جهوداً غير نافعة، بل وهي تزيد ما للنفس من علم بالتدريج"[٢]،

(١) رينيه ديكارت: حديث الطريقة، ترجمة: عمر الشارني، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٨م، ص٤٤ .

(٢) رينيه ديكارت: مقال عن المنهج، ترجمة: محمد الخضيري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ١٩٨٥م، ص١٤١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد اتبع ديكارت هذا المنهج الذي له صلة بالعلم وقد توصل إليه ديكارت من خلال تطور عقله ونضجه.

لقد كان لفلسفة ديكارت بالغ الأثر على فلسفة سبينوزا، وقد سعى ديكارت في تفكيره إلى تحقيق عدة نقاط كإيجاد علم يقيني مثل اليقين الموجود في العلوم الرياضية بخلاف العلم الذي كان في العصر الوسيط إضافة إلى تطبيقه تطبيقاً علمياً والسعي إلى تحديد العلاقة بين هذا العلم وبين الله من خلال ميتافيزيقا لحل المشكل بين الدين والعلم، وبهذا فقد كان ديكارت أهم الفلاسفة في الفترة الحديثة اعتباراً مما قدمه للفلسفة وتقديمه للمنهج الذي أثر كثيراً في النسق الاسبينوزي فكان ديكارت مليئاً بالشغف العقلي، ولكنه لم يكن مثقلاً بالجدية الأخلاقية فقد سعى داخل هذا الإطار ليجد مكان للتقوى وحياة مكرسة لله[1].

فهناك اتفاق بين ديكارت وسبينوزا في مسألة الدين ودوره في تقويم حياة الناس، فسبينوزا سعى لتقديم التفسير العقلاني للدين وحاول أن يجعل الدين منزهاً وصحيحاً وجب احترامه.

لقد جعل ديكارت من منهجه القائم على الوضوح والبداهة في وضع الأمور موضع الشك حتى تتمثل في العقل بوضوح وتميز، فحينما انتهت شكوك ديكارت المطلقة منها والمنهجية بواسطة ما يعرف بالكوجيتو[2] الديكارتي "أنا أفكر أنا موجود" وهو القانون الذي استطاع أن يثبت حقيقة ذاته ووجوده، انتقل بعدها إلى محاولة إثبات وجود العالم الخارجي وإثبات أن لهذا العالم خالق أوجده وهو علة في وجود كل الموجودات، ويذهب إلى أن الفكرة التي لنا على الله فهي لا تأتي منا.

فيقول (ديكارت): "إذن فلا يبقى إلا فكرة الله وحدها، وينبغي أن ننظر هل فيها شئ لم يكن صدوره عني أنا نفسي، وأقصد بلفظ الله جوهر لا متناهيا، منزها عن التغيير قائماً بذاته محيط بكل علم، قادر على كل شئ، وهو خالق جميع الأشياء الموجودة، وهذه

(1) برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث "الفلسفة الحديثة"، ترجمة: د.محمد فتحي الشنيطي ص١٢٢.

(2) الكوجيتو: لفظ يوناني يعني أن أفكر ولكن مع إضافة لام التعريف يقصد به حجة ديكارت ويستدل بالفكر على جوهرية النفس، (انظر: مراد وهبة، المعجم الفلسفي، مادة الكوجيتو، ص٥٢٥) .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصفات الحسنى قد بلغت من الجلال والشرف حداً يجعلني كلما أمعنت النظر فيها، قل ميلي إلى الاعتقاد بأن الفكرة التي لدي عنها يمكن أن أكون أنا وحدي مصدرها، فلابد إذن أن نستخلص من كل ما قلته من قبل أن الله موجود؛ لأنه وإن كانت فكرة الجوهر موجودة في نفسي من حيث أني جوهر، إلا أن فكرة جوهر لا متناه ما كانت لتوجد لديّ أنا الموجود المتناهي إذا لم يكن قد أودعها في نفسي جوهر لا متناه حقاً"[1].

إن الميزة الأساسية التي أثرت في فلسفة سبينوزا هي اعتماد ديكارت على المنهج الاستنباطي في مجال المعرفة وتأكيد هذا الأخير أن الميتافيزيقا التي أنشأها مطابقة لقواعد اليقين الاستنباطي، وقد اعتمدت حقيقتها على مجرى ذلك المنهج وسار سبينوزا على ذات المنهج بامتياز من خلال وضعه في كتاب الأخلاق المبرهن عليها في نظام هندسي.

وكان سبينوزا يهدف من خلال هذا العمل إلى تفسير الخير بالنسبة للإنسان والعواطف والحرية الإنسانية، ويرى سبينوزا أن هناك نوعا واحداً للجوهر وهو الذي يجري تصوره من خلال ذاته عكس ديكارت الذي يقول إن هناك نوعان للجوهر . جوهر ذهني وجوهر للمادة ويتوقف وجودهما مع بعضهما البعض، وقد أخذ سبينوزا في مؤلفاته الأولى النتائج المنطقية المترتبة عن مقدمات ديكارت وتابعها، فكلاهما يؤمن بأنه يجب على العقل أن يستغرق في تأمل ذاته، ومن ثم فإن العقل يستطيع أن يفهم الحقائق الكونية الكبري ويعرف صحتها وكذبها، لأنه النور الفطري الذي وهبه الله للإنسان.

يقول (ول ديورانت): "إن الفكرة المركزية في ديكارت هي أسبقية الوعي، وأن العقل يعرف نفسه بسرعة مباشرة أكثر من مقدرته على معرفة أي شئ آخر، وأنه يعرف العالم الخارجي فقط عن طريق أثر ذلك العالم على العقل بالإدراك الحسي، وبناء عليه يجب أن تبدأ كل الفلسفة بعقل الفرد وذاته، وتبدأ نقاشها الأول في كلمات ثلاث، أنا أفكر لذلك أنا موجود، قد يكون في هذه البداية شيء من فردية عصر النهضة، ولكن هذه الناحية من

(1) رينيه ديكارت، التأملات في الفلسفة الأولى، ترجمة تعليق: عثمان أمين، الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٩م ص،١٥٢، ١٥٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فلسفة ديكارت لم تثر اهتمام سبينوزا، فهو لا يريد أن يضل في متاهة المنطق والمعرفة، ولكن الذي أثار اهتمامه في ديكارت هو ما ذهب إليه من أن الوجود ينحل إلى عنصرين: عنصر متجانس تنطوي تحته جميع أشكال المادة، وعنصر متجانس آخر يندرج تحته جميع أشكال العقل. لقد كان تقسيم الوجود هذا إلى عنصرين نهائيين تحدياً لشعور سبينوزا الذي ينزع إلى التوحيد. كما أثر على تفكيره، والذي أثار اهتمام سبينوزا بديكارت أيضاً، هو تفسيره للعالم كله ماعدا الله والنفس بالقوانين الآلية الرياضية، وهي فكرة تعود إلى ليوناردو وجاليليو وربما كانت انعكاساً لتطور الآلات والصناعة في المدن الإيطالية، فقد قال ديكارت إن الله دفع العالم الدفعة الأولى (تماماً كما قال أناكسجوراس قبل ألفي سنة) وبقية الظواهر الفلكية والجيولوجية وجميع العمليات غير العقلية والتطورات يمكن تفسيرها من عنصر متجانس وجد أولاً في شكل منحل، وكل حركة لكل حيوان وحتى في جسم الإنسان هي حركة ميكانيكية آلية، وأن جميع العالم وكل جسم عبارة عن آلة، ولكن في خارج العالم نجد إلهاً كما في داخل الجسم روحاً، وهنا توقف ديكارت"[1].

كما كان سبينوزا يعتقد أن الرياضيات هي المفتاح لحل ألغاز الكون وكشف أسراره ومعرفة قوانينه، واتخذ الهندسة نموذجاً بنى عليه فلسفته، كما أن الهندسة تبدأ بقضايا صادقة بذاتها، كذلك فإن البحث عن الحقيقة ينبغي أن يبدأ بقضايا صادقة بذاتها، لبناء المعرفة البشرية التي ترمي إلى تحقيق سعادة قصوى دائمة متصلة بالناس جميعاً. وإن كان ديكارت قد وجد في النفس نقطة الانطلاق لفلسفته، فإن سبينوزا وجد نقطة الانطلاق الأولى في (الله)، فانطلق منها في بناء المعرفة؛ لأن الله هو الوحيد الذي تتوفر فيه شروط الاكتفاء الذاتية.

يقول سبينوزا في مؤلَّفه **"رسالة في إصلاح العقل"**: "يجب أن نشير إلى السبيل والمنهج اللذين سيقودانا إلى معرفة الأشياء الواجب معرفتها بهذا النوع من المعرفة. لذلك لا بدّ أن نلاحظ، بادئ ذي بدء، أن البحث لن يتواصل هنا إلى ما لا نهاية، وأن الكشف عن أفضل طريقة للبحث عن الحقيقة لن يجعلنا بحاجة إلى طريقة نبحث بها عن طريقة البحث

(1) انظر: ول ديورانت: قصة الفلسفة، ترجمة: د/ فتح الله محمد المشعشع، ص١٨٨ - ١٩١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تلك، ولا إلى طريقة ثالثة للبحث عن الطريقة الثانية، وهكذا دواليك بلا نهاية، إذ إننا لن نصل بهذا النحو إلى معرفة الحقيقة ولا حتى إلى أية معرفة"[1].

فينطلق سبينوزا من (الله) لبناء تصوره المعرفي، لأن الله سابق على مواد الحس في الوجود والمعرفة، ومواد الحس تعتمد في وجودها على الله، فإذا أردنا معرفتها وجب أولاً أن نعرف الله، لأن كل شئ يلزم في طبيعة الله ضرورة. فيقول سبينوزا: "نستنتج بغاية الوضوح أنه لا بدّ لفكرنا، كي يتمثل مشهد الطبيعة، أن يستخلص جميع أفكاره انطلاقاً من الفكرة التي تمثل منشأ الطبيعة وأصلها، بحيث تكون هذه الفكرة نفسها مصدراً للأفكار الأخرى"[2].

ويذكر يوسف كرم عن سبينوزا قوله: "فلأجل استكشاف المعنى الأول الذي تلزم منه جميع المعاني، أو المبدأ الأول الذي تصدر عنه جميع الأشياء، يجب أن نلاحظ أن من خصائص العقل أنه يكوّن المعاني المحصلة قبل المعاني المعدولة. ومعنى المتناهي معدول في حقيقته إذ إننا نقول عن شئ إنه متناه في جنسه متى أمكن حده بشئ آخر من طبيعته، فمثلاً نقول عن جسم إنه متناه لأننا لا نستطيع دائماً أن نتصور جسماً أعظم منه. وعلى العموم كل تعيين فهو حد أو عدول وسلب. وعلى ذلك فالمعنى المحصل بمعنى الكلمة هو المعنى اللامتناهي أو الجوهر المطلق أو الله، وبه يجب الابتداء"[3].

وهنا نقطة البدء عند سبينوزا تبدأ من "الله"، بينما هي عند ديكارت تبدأ من الأنا أو النفس. فسبينوزا كما سبق في كتابه (رسالة في إصلاح العقل) يسعى عن طريق منهج التأمل إلى الارتقاء إلى فكرة الله التي هي مبدأ العلم الصحيح وقاعدته. فقد خالف سبينوزا ديكارت في مبدأ الانطلاق، فإذا كان ديكارت قد بدأ من الفكر والأنا، فإن سبينوزا ينطلق من "الله" ثم تنزل فلسفته إلى سائر الموجودات.

ويوافق سبينوزا من ناحية أخرى ديكارت من خلال مبادئ فلسفته التي في أساسها تقوم على الهندسة والمبادئ الميكانيكية، ويوظف سبينوزا الهندسة في عرض أفكاره، إذ يبدأ

(1) سبينوزا: رسالة في إصلاح العقل، ترجمة: جلال الدين سعيد، دار الجنوب للنشر، تونس، ١٩٩٠م، ص٣٥.

(2) سبينوزا: رسالة في إصلاح العقل، ترجمة: جلال الدين سعيد، ص٣٩.

(3) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، ١١٠، ١١١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالتعريف، ثم يذكر النظرية، ثم يتبعها بالبرهنة عليها، ويستخدم المصطلحات المستعملة في الهندسة والرياضيات لعرض مذهبه الفلسفي.

"ويُعدّ كتاب **"مبادئ فلسفة ديكارت"** من أوّل ما ألّفه سبينوزا وأحد الكتابين اللذين نشرهما إبان حياته، باعتبار أن ثانيهما هو **"الرسالة في اللاهوت والسياسة"**. ومع أن سبينوزا إنما يعرض في هذا الكتاب فكر ديكارت لا فكره هو، فلقد ذاع صيته، نظراً إلى ما توخاه من دقة وصرامة في عرض أفكار الفيلسوف الفرنسي بأسلوب هندسي يعتمد الحدود والأوليات والمصادرات والقضايا والبراهين، ونظراً إلى كونه لم يكتف، في بعض المواطن، بالسرد والتحليل بقدر ما جدّ في أن يطبع عرضه بطابع جدالي حاول من خلاله التلميح إلى البعض من آرائه الشخصية والإعداد لها، وذلك بالإلحاح على المبادئ التي كانت تبدو ملائمة لمبادئه الخاصة وبالإقدام على تحوير أفكار ديكارت تارة وتجاوزها أطواراً. فعلى هذا النحو مثلاً نجد سبينوزا في حاشية القضية التاسعة من الباب الأول، يستطرد في شرحه قائلاً: "إن الله، ولولا أنه لا جسماني، إلا أنه ينبغي مع ذلك أن يُفهم على أنه يشتمل في ذاته على كل الكمالات التي في الامتداد". فليس من شك في أن هذا الكلام لا يوجد مثله عند ديكارت، فهو كلام يجعل من سبينوزا فيلسوفاً ديكارتياً أكثر من ديكارت نفسه، ولعل هذا ما يبرز بأكثر وضوح في (الخواطر الميتافيزيقية) التي نشرت عقب كتاب المبادئ مزيدا للشرح والتوضيح ..، فمهما بدا (سبينوزا) في كتاب المبادئ وكتاب الخواطر، تلميذا من تلاميذ المدرسة الديكارتية، إلا أنه كثيراً ما يبتعد عن مبادئ هذه المدرسة، وأغلب الظن أنه كان بهذا يهيئ العقول لفلسفة أكثر جرأة هي تلك التي يعرضها في آثاره الأخرى بوجه عام"[1].

وهذا ما سوف نوضحه في الفصل القادم، وهو فلسفة الدين عند سبينوزا، وموقفه من قضيه الدين، ورؤيته الفلسفية الخاصة لفلسفة الدين.

(1) مقدمة رسالة في إصلاح العقل، لسبينوزا، ترجمة: جلال الدين سعيد، ص١٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثاني

(فلسفة الدين عند اسبينوز)

ويتضمن ثمانية مباحث:

- **المبحث الأول:** مفهوم (فلسفة الدين) وتطوره.
- **المبحث الثاني:** وجود الله وصفاته عند سبينوزا.
- **المبحث الثالث:** نقد سبينوزا للتوراة.
- **المبحث الرابع:** النبوة عند سبينوزا.
- **المبحث الخامس:** نفي القدسية الأبدية لبني إسرائيل.
- **المبحث السادس:** المعجزة.
- **المبحث السابع:** الفرق بين النبي والحواري.
- **المبحث الثامن:** العقل واللاهوت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الأول
مفهوم (فلسفة الدين) وتطوره

أولاً: مفهوم (فلسفة الدين):

لقد ظهر مصطلح فلسفة الدين في نهاية القرن الثامن عشر، وهي نوع من الفلسفة تعتمد العقلَ في بحث وتحليل المقدسات والمعتقدات والظواهر الدينية وتفسيرها. ولا تتوخى الدفاعَ عن هذه المعتقدات وتبريرها،..، وبكلمة موجزة: فلسفة الدين هي التفكير الفلسفي في كل ما يتصل بالدين؛ شرحاً وتفسيراً وبياناً وتحليلاً، من دون أن تتكفل التسويغ أو التبرير أو الدفاع أو التبشير. وتتناول فلسفة الدين أسئلة تتعلق بإمكان معرفة وجود الله، ومعرفة صفاته، وكيفية تحديد العلاقة بين الله والعالم، وكيفية فهم طبيعة الله (ماهيته)، والعلاقة بين وجوده وماهيته. كذلك تتناول فلسفة الدين أسئلة تتعلق بطبيعة الدين نفسه، وطبيعة اللغة الدينية. بالإضافة إلى أسئلة تتعلق بمعنى العبادة الدينية، ودور الإيمان فيها، وعلاقة الأخير بالعقل"[1].

إن فلسفة الدين تعني: "البحث الفلسفي في الدين، وفي شأن الدين"[2] أي التناول الفلسفي لكل ما هو ديني.

وأشهر التعريفات التي قُدمت لفلسفة الدين بوصفها نمط فلسفي مستقل راهن يستهدف "التفسير العقلاني لتكوين بنية الدين عبر الفحص الحر للأديان، والكشف عن طبيعة الدين من حيث هو دين، أي عن الدين بشكل عام من حيث هو منظومة متماسكة من المعتقدات والممارسات المتعلقة بأمور مقدسة، ومن حيث هو نمط للتفكير في قضايا

(1) د. عبد الجبار الرفاعي: تمهيد لدراسة فلسفة الدين، موسوعة فلسفة الدين، ج١، الناشر: مركز دراسات فلسفة الدين. بغداد، دار التنوير للطباعة والنشر، ط١، ٢٠١٤م ، ص١٥.

(2) علي أكبر رشاد: فلسفة الدين، تعريب موسى ظاهر، بيروت، مركز الغدير للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠١١م، ص٣٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الوجود، وامتحان العقائد والتصورات الدينية للألوهية والكون والإنسان، وتحديد طبيعة العلاقة بين كل مستوى من مستويات الوجود، والبحث في الطبيعة الكلية للقيم والنظم والممارسات الدينية، ونمط تطور الفكر الديني في التاريخ، وتحديد العلاقة بين التفكير الديني وأنماط التفكير الأخرى، بغرض الوصول لتفسير كلي للدين، يكشف منابعه في العقل والنفس والطبيعة، وأسسه التي يقوم عليها، وطبيعة تصوره للعلاقة بين المتناهي وللامتناهي، والمنطق الذي يحكم نشأته وتطوره واضمحلاله". (١)

إن فلسفة الدين هي ذلك الفرع من الفلسفة المختص بالتساؤلات الخاصة بالدين، وطبيعة الوجود الإلهي، وفحص التجربة الدينية، وتحليل المفردات والنصوص الدينية، والعلاقة بين الدين والعلم. أي أن فلسفة الدين هي الدراسة العقلية للمعاني وللقضايا التي تطرحها العقائد الدينية وتفسيراتها للظواهر الطبيعية وما وراء الطبيعة مثل وجود الله وقضايا الخلق والموت والمصير" (٢).

ويقرر "قاموس كامبردج الفلسفي" "أن فلاسفة الدين يهدفون إلى تقييم إدعاءات الحقائق الدينية من منظور عقلاني خالص"(٣)

أي أن فلسفة الدين تتجه إلى التركيز على تقييم دعاوى الحقيقة الدينية ...، وإن فلاسفة الدين لديهم

التقييم العقلي لكل هذا كما أن لديهم أجوبة عقلية عن تلك التساؤلات الدينية التي يطرحها الإنسان (٤).

(١) د. محمد عثمان : مدخل إلى فلسفة الدين، دار قباء للطباعة والنشر . القاهرة، ٢٠٠١م، ص٣٥ .

(٢) د. مصطفى النشار: مدخل جديد إلى فلسفة الدين، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠١٥م، ص٥٤.

(٣) The cambrige Dictionry of philosophy, General Editor: Robet Audi, Cambidge University press, Second edition, 1999, p 696.

(٤) د. مصطفى النشار: مدخل جديد إلى فلسفة الدين، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠١٥م، ص٥٥ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن هنا يبدو أن الدين بألوانه المتعددة عادة ما يكون ملهماً للتأمل الفلسفي، وعلى الجانب الآخر كثيراً ما يلجأ الناس إلى الفلسفة لتجيبهم عن أسئلة تثيرها اعتقاداتهم الدينية [1].

وفي كلتا الحالتين نحن أمام فلسفة للدين.

"ونلاحظ أن ثمة فرقاً بين علماء اللاهوت (أو علماء الكلام بالاصطلاح الإسلامي) وبين فلاسفة الدين؛ حيث الأوائل أي علماء اللاهوت عادة ما ينظرون إلى الوجود الإلهي كمسلَّمة أو بديهيه غير قابلة للنقاش، أو كحقيقة واضحة بذاتها، ويشرحون ويبررون الاعتقادات الدينية بالمنطق العقلاني أو بالصور الفطرية والمجازات الحدسية. أما فلاسفة الدين فهم يختبرون وينقدون الأسس المعرفية والمنطقية والأخلاقية والجمالية المتضمنة في اعتقادات دين ما . أي دين. وبينما علماء اللاهوت يحللوت عقلياً وتجريبياً موضوع طبيعة الإله، فإن فلاسفة الدين مهتمون أكثر بالسؤال عما هو قابل للمعرفة وبإبداء الرأي في كل ما يتعلق بالمعتقدات الدينية. وثمة أسئلة أخرى تهتم بها فلسفة الدين مثل التساؤل عما الذي يجعلنا نصدق أي معجزة حدثت وبأي وسيلة يمكننا من ذلك؟! وما هي العلاقة بين الإيمان الديني والعقل، وما هي العلاقة بين الدين والأخلاق؟! إن فلسفة الدين بهذه التساؤلات وغيرها تذهب إلى ما وراء الميتافيزيقا، وهي تقدم تساؤلات تتقاطع مع حقول فلسفية مختلفة، كنظرية المعرفة وفلسفة اللغة والمنطق الفلسفي، وفلسفة الأخلاق وتنظر أيضاً في رؤية العالم". [2]

"ففلسفة الدين واحدة من الفلسفات المضافة، مثل: فلسفة العلم، فلسفة القانون، فلسفة التربية..الخ، فهي لا تختص بدين معين، أو أديان خاصة، وإنما هي بمثابة فلسفة العلم التي لا تختص بعلم معين، لكن نشأة فلسفة الدين في الغرب؛ كانت سبباً لأن تتداول العقائد والمقدس والظواهر الدينية في المسيحية واليهودية"[3].

(1) وليم جيمس إيرل: مدخل إلى الفلسفة، ترجمة: د. عادل مصطفى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١١م، ص٢٦٨.

(2) د. مصطفى النشار: مدخل جديد إلى فلسفة الدين، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠١٥م، ص٥٦.

(3) د. عبد الجبار الرفاعي: تمهيد لدراسة فلسفة الدين، موسوعة فلسفة الدين، ج١، ص١٦ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونلاحظ في تاريخ الفلسفة الحديثة ملاحظة شديدة الأهمية، ألا وهي، أن من فقد إيمانه بالدين من الفلاسفة المحدثين لم يفقد اهتمامه بالدين! ويعد سبينوزا أبرز مثال لهذه الملاحظة؛ حيث إنه بدا مارقاً عن الدين من وجهة نظر المتدينين التقليديين فاتُهم بالهرطقة عند اليهود والمسيحيين على السواء، ومع ذلك أنجز فلسفة أصيلة عن الدين.

ثانياً: تطور مفهوم (فلسفة الدين) عبر العصور:

"لم يغادر التفكير الفلسفي بحث وتحليل قضايا الدين والمقدس والإله، منذ نشأة هذا التفكير حتى اليوم. فليس هناك فيلسوف لم يتناول هذه القضايا ويعالجها؛ اثباتاً أو نفياً. وفي وقت مبكر صنف الفلاسفة مباحثهم، في "الحكمة النظرية" إلى الإلهيات، والرياضيات، والطبيعيات.

أما الفلاسفة الإسلاميون، من الكندي إلى صدر الدين الشيرازي، فقد استوعبت الإلهيات، وما يتصل بها من مباحث النبوات والوحي وغيرها، مساحة واسعة من مؤلفاتهم.

واقترن اللاهوت الطبيعي باسم القديس توما الإكويني (١٢٢٤ - ١٢٧٤)، الذي يؤكد على إمكانية الاستدلال العقلي على كافة المعتقدات اللاهوتية، من دون حاجة للاستعانة بالوحي. واللاهوت الطبيعي يقابل اللاهوت الوحياني؛ وهو اللاهوت النقلي الذي يتخذمن الوحي طرقاً للوصول إلى المعتقدات. غير أن اعتماد العقل في إثبات المعتقدات يعود إلى ما هو أقدم من عصر توما الاكويني، فالفلاسفة اليونان استخدموا الأدلة العقلية في البرهنة على وجود الله"[1].

"إن قضايا الإله والدين والمقدس ما زالت حاضرة بكثافة في آثار الفلاسفة الغربيين، منذ العصر اليوناني حتى اليوم. ولا تتطابق رؤيتهم عادة لهذه القضايا مع آراء الكنيسة ولاهوتها، ذلك أنهم يفكرون فيها ويتأملونها في سياق مفاهيمهم للوجود والمعرفة والقيم"[2].

(1) انظر: د. عبد الجبار الرفاعي: تمهيد لدراسة فلسفة الدين، موسوعة فلسفة الدين، ج١، ص٧.

(2) المرجع السابق، ج١، ص٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فمثلاً: سبينوزا في رسالته (**في اللاهوت والسياسة**) " والتي صدرت سنة ١٦٧٠، قد انطلق فيها في دراسته للدين من منهجه النقدي العقلاني، منهج الأفكار الواضحة المتميزة، الذي طبقه بصرامة على قضايا الدين؛ فانتقل بها من مجال اللاهوت إلى مجال فلسفة الدين، ليس بمعناها الواسع الذي يعني موقف الفيلسوف الضمني أو الصريح من الدين، والذي يعد مبحثاً قديماً قدم الفلسفة ذاتها. وإنما بوصفه مبحثاً حديثاً يعبر عن نمط خاص من التفلسف ويتمتع باستقلال نسبي، ويتخذ من القضايا الدينية موضوعاً له، ويبدأ في دراستها بلا تحيز أو تحامل. أي كتخصص يُؤثِر الباحث فيه الابتعاد مسافة كافية عن الدين؛ ليتسنى له صياغة موقف معرفي منه، حيث تتم مقارنة الدين كنتاج بشري وليس كمقدس سماوي، ومن ثم يُمكن لفلسفة الدين بمعناها الحديث أن تُخضِعَ الدين للتطهير والتصحيح في ضوء الحقيقة الفلسفية.

وقد انطلق سبينوزا في تطبيق منهجه هذا بدءاً من اعتراضه على ما جاء في الكتاب المقدس من تأييد للرأي القائل بأن العقل الإنساني فاسد بالطبع. واتخاذه موقفاً مضاداً لهذا الموقف، أعلى فيه من سلطة العقل على النقل، وتبلور ذلك في تساؤله الاستنكاري "كيف أكذّب عقلي وأصدق حرف مائت محرف؟!" وقد اختار سبينوزا هذا المنهج دون غيره؛ لأنه . كما يقول . أراد أن يستبعد من تفكيره كل عامل شخصي؛ ولكي يبحث في انفعالات البشر بنفس الموضوعية التي يبحث بها عالم الهندسة في النقط والخطوط والسطوح.

"ورغم أن حضور ما يتصل بالله والدين كان لافتاً في الفلسفة الحديثة، لكن الفيلسوف إيمانويل كانط (١٧٢٤ . ١٨٠٤) كان أول من قدم صياغة فلسفية معمقة هامة للدين. ففي كتابه "نقد العقل المحض" اقترح نظرية في المعرفة، لا تقوم على أساس ميتافيزيقي، وناقش كافة البراهين الميتافيزيقية على وجود الله. وفند اللاهوت الطبيعي الذي كان سائداً في عصره. وشدد على عدم إمكان معرفة الله نظرياً. لكنه دافع عن الأساس الأخلاقي للدين والاعتقاد بالله، في كتابيه: "نقد العقل العملي"، و "الدين في حدود مجرد العقل".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحين نفى كانت الاعتقاد النظري بالله، رأى الاعتقاد الأخلاقي راسخاً لا يتزعزع. فإن: "مفهوم الله لا ينتمي أصلاً إلى الفيزياء، أو إلى العقل النظري، بل إلى الأخلاق"[1].

ففلسفة كانت بمجموعها توصف بأنها فلسفة دين.

ثم يأتي جورج ويلهم فردريك هيغل (١٧٧٠ . ١٨٣١)، الذي تنوعت الآراء حول فلسفته الدينية، "فوصفها البعض بأنها "لاهوت مقنّع"، أو "صورة مقنعة من صور الفلسفة المسيحية"، ولعل تفسيره للروح المطلقة في فلسفته يشي بتطابقها مع وحدة الوجود الصوفية. وكان هيغل أول من اتخذ "فلسفة الدين" عنواناً لسلسة محاضرات على تلاميذه، وصدرت سنة ١٨٣٢، بعنوان "محاضرات في فلسفة الدين"[2].

ولن تغادر الفلسفة الغربية قضايا اللاهوت والدين حتى الآن، فمع فلاسفة القرن العشرين، وما ظهر فيه من تيارات فلسفية كالوجودية والوضعية المنطقية والبنيوية والتفكيكية، نعثر على تأويلات ومواقف مختلفة لما يتصل بالميتافيزيق والظواهر الدينية.

إذن: فمصطلح فلسفة الدين لم يظهر سوى في القرن السابع عشر على يد كانط، وقد كان سبينوزا بهذه الفلسفة صاحب الإرهاصات "لفلسفة الدين" كما ظهرت بعد ذلك عند كانط (Kant) في كتابه "الدين وحدود العقل وحده"، ولولا أن شابت فلسفته في الدين بعض الشوائب المنهجية لكان المؤسس الحقيقي لفلسفة الدين بلا منازع.

*** النقد الفلسفي للاهوت والسياسة عند سبينوزا:**

يميز سبينوزا تمييزاً واضحاً بين الدين واللاهوت (علم الكلام)، فالدين عنده شئ واللاهوت شئ آخر، حيث إن اللاهوت ليس نظرية في الله فحسب بل ينشأ عن نظام سياسي كذلك. والحقيقة أن رسالة سبينوزا كما يظهر من عنوانها (**رسالة في اللاهوت والسياسة**) ليست دراسة للصلة بين الدين والسياسة، بقدر ما هي دراسة للصلة بين السلطات اللاهوتية والسلطات السياسية، أي أن غرض سبينوزا هو دراسة الصلة بين السلطة

(١) نفس المرجع، ج١، ص٩.

(٢) نفسه، ج١، ص١١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اللاهوتية الممثلة في رجال الدين أو في الكنيسة وبين السلطات المدنية الممثلة في الحاكم، فهي دراسة واقعية للأوضاع التي عاشها سبينوزا من تحالف السلطتين اللاهوتية والسياسية وكلاهما يقومان لا على العقل بل على العاطفة ومنع حرية الرأي ورفض التفكير العلمي.[1] إذاً فإن دراسة سبينوزا تعتبر تحليلاً منطقياً عقلانياً للصلة بين اللاهوت القائم بالفعل والنظم السياسية القائمة في عصره.

"صدرت (الرسالة في اللاهوت والسياسة) سنة ١٦٧٠، في وقت كان فيه الجدل محتدماً حول مسائل الوحي والنبوة والمعجزات، وأيضاً حول حرية الاعتقاد والتفكير"[2].

"ولقد عدد سبينوزا، في رسالته إلى أحد المقربين من أصدقائه، الأسباب التي دفعته إلى تأليف (**رسالة في اللاهوت والسياسة**) فقال: "إني منكب حالياً على إعداد مصنف حول رؤيتي للكتاب المقدس، وإن الأسباب التي دفعتني إلى ذلك هي: ١. أحكام اللاهوتيين المسبقة؛ إذ أعلم أن هذه الأحكام هي الحائل دون أن يتولى الناس ممارسة الفلسفة؛ أرى من المفيد، إذاً، أن أفضحها، وأخلّص العقول النيرة منها. ٢. الفكرة التي يملكها عني العامي؛ إذ لا ينفك يتهمني بالإلحاد؛ فأنا ملزم بمحاربتها قدر الإمكان. ٣. حرية التفلسف والجهر برأينا؛ فأنا أريد إثبات ذلك بكل الطرق؛ لما أراه لدى الوعاظ من سعي حثيث إلى القضاء عليها بكل ما أوتوا من سلطة مفرطة وحماس مشين".

ويوجد في (**الرسالة اللاهوتية السياسية**) رافدان اثنان؛ فمن جهة نجد نقداً منظماً للاهوت، باعتباره يسعى إلى ممارسة سلطة فكرية متشددة خارج الحدود المرسومة له، ومن جهة ثانية تطلعنا الرسالة على نظرية في السلطة السياسية وفي مصدرها وقواعدها. أما نقد اللاهوت، فقد يكون من بعض دواعيه ردُّ فعلٍ شخصي ضد السلطة الدينية التي حاكمت سبينوزا

(١) Wolfson (H.A):The Philosophy of Spinoza: Meridian Paper backs: New - York 1967. P 10-12.

(٢) مقدمة رسالة في إصلاح العقل، لسبينوزا، ترجمة: جلال الدين سعيد، ص٢١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعزلته عن الطائفة اليهودية؛ وأما النظرية في السلطة السياسية، فهي تمثل ، بلا ريب، مساندة أكيدة للجهود التي كان يبذلها (يان دي فيت) من أجل ترسيخ حرية الفكر والمعتقد[1].

لقد أراد سبينوزا في دراسته عن اللاهوت والسياسة أن يؤكد بأن حرية التفلسف لا تمثل خطراً على الدين أو على السلام في الدولة، بل إن القضاء عليها هو الذي يؤدي إلى ضياع الدين والسلام، وقد كان يهدف في هذا إلى إثبات أن حرية الفكر لا تمثل خطراً على سلامة الدولة، أي أن العقل هو الضمان الوحيد لتأسيس نظام سياسي سليم تتبعه الدولة. وقد كان سبينوزا في هذا منسجماً تماماً مع فلسفته العقلانية والإنسانية . بصورة عامة . ومع نظريته العلمية والواقعية في الأخلاق بصورة خاصة. ولإثبات ذلك . عند سبينوزا . لابد من مقاومة عدد من الأحكام المسبقة المشوهة للدين وللسلطة معاً. ولعل الحاجز الرئيس أمام هذه المقاومة إنما هو احتقار الكنيسة وازدراءها للعقل؛ إذ تراه فاسداً أصلاً (فالعقل إنما هو عاهرة الشيطان كما قال مارتن لوثر)، وتفضّل عليه النور الرباني الذي يتجلى من خلال الكتاب المقدس. كتب سبينوزا في هذا السياق، فقال: "ولما كان قد قدر لنا أن نحظى بهذه السعادة النادرة، وهي أن نعيش في جمهورية يمارس فيها كل فرد حرية التعبير وعبادة الله كما يشاء، ويعد الجميع الحرية أغلى النعم وأحلاها، فقد رأيت أنني لن أكون قد قمت بعمل جاحد أو عقيم إذا ما بينت أن هذه الحرية لا تمثل خطراً على التقوى أو على سلامة الدولة؛ بل إن القضاء عليها يؤدي إلى ضياعهما معاً"[2].

لذلك تعد رسالة سبينوزا في (**اللاهوت والسياسة**) رسالة ظرفية، تعالج الظروف التي عاشها سبينوزا وما عاناه من تسلط رجال الدين على السلطة، وإنكار العقل، فكانت رسالته تحليلاً منطقياً عقلانياً للصلة بين اللاهوت القائم بالفعل والنظم السياسية القائمة في عصره.

(1) د. جلال الدين سعيد: سبينوزا والكتاب المقدس، الدين والأخلاق والسياسة، ص٢٧، ٢٨.

(2) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، المقدمة، ص١١٢، ترجمة: د/ حسن حنفي، دار التنوير بيروت، ٢٠٠٥م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فنقد سبينوزا للاهوت في الواقع لم يكن موجهاً ضد الشعور الديني وضد التقوى والورع الحقيقيين بقدر ما كان موجهاً إلى السلطة الدينية، أي الكنيسة المتسلطة التي تستغل سذاجة الناس وسرعة استجابتهم للأساطير والأباطيل كي تستعبدهم وتستنزفهم.

فسبينوزا يعلن صراحة معاداته لرجال الدين وللاهوتيين المتملقين ولم يكن عدائه للدين ذاته. فقد رأى سبينوزا أن الأسرار اللاهوتية التي يجعلها اللاهوتيون فوق العقل هي تعطيل للعقل وإبعاد له عن دوره في فهم الحقائق، والتمييز بين الحق والباطل، وهنا يجعل سبينوزا العقل في مكانته اللائقة به في النقد والفهم والتمييز.

إن سبينوزا يحدد المنهج الذي يسير عليه متأثراً بمنهج ديكارت العقلي وخاصة في قاعدة (ديكارت) الأولى، قاعدة البداهة والوضوح التي نصت على "ألا أقبل شيئاً ما على أنه حق ، ما لم أعرف يقيناً أنه كذلك: بمعنى أن أتجنب بعناية التهور، والسبق إلى الحكم قبل النظر؛ وألا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل أمام عقلي في جلاء وتميز؛ بحيث لا يكون لديّ أي مجال لوضعه موضع الشك"[1] وإن كان ذلك لايعني أن سبينوزا قد اقتصر على تلك القاعدة المنهجية الديكارتية التي تظهر بجلاء من خلال قوله: "لذلك عقدت العزم على أن أعيد من جديد فحص الكتاب المقدس بلا ادعاء وبحرية ذهنية كاملة، ولا أثبت شيئاً من تعاليمه أو أقبله ما لم أتمكن من استخلاصه بوضوح تام منه، وعلى أساس هذه القاعدة الحذرة وضعت لنفسي منهجاً لتفسير الكتب المقدسة"[2]، وإنما نجد القواعد الثلاث الأخرى للمنهج الديكارتي: التحليل، والتركيب، والإحصاء موجودة في منهج سبينوزا العقلي؛ إذ يعرض كل شئ على حكم العقل، فلا يقبل إلا ما بدا بديهياً معقولاً، ثم يقوم بتحليل كافة مشكلاته بقدر ما وبقدر ما تسمح به طبيعة كل مشكلة. ثم يقوم بترتيب ما قام بتحليله من الأبسط إلى الأكثر تعقيداً وفقاً لضرورة عقلية لا وفقاً لهوى شخصي مرتئياً بأنه من الخطأ كل الخطأ أن نتخطى هذه الدرجات الضرورية بين القضايا او نصعد السلم في قفزة واحدة. ثم يقوم

(1) ديكارت: مقال عن المنهج، ترجمة: محمود محمد الخضيري، مراجعة وتقديم، د. محمد مصطفى حلمي، ١٩٠، ١٩١.

(2) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص١١٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعملية استقراء تريد تجنب السهو والخطأ، وأنه في عملية التركيب لم يغفل أي جزء من أجزاء المشكلة التي يريد حلها. مستعيناً بالحدس والاستنباط كدعامتين أساسيتين لهذا المنهج؛ إذ جعل سبينوزا المعرفة الحدسية أرقى أنواع المعارف. وقد استعان سبينوزا بهذا المنهج الديكارتي فلم يفرض قيوداً على العقل في دراسة أي قضية، مثلما حرم ديكارت منهجه هذا من التطبيق في مجالات عدة كان الدين على رأسها.

ونعرض فيما يلي كيف حاول سبينوزا أن يعالج قضايا الدين ومبادئه بطريقة عقلانية خالصة، وأن لا يقبل منها شيئاً على أنه حق ما لم يتحقق بالبداهة العقلية أنه كذلك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الثاني

وجود الله وصفاته عند سبينوزا

أولاً: الجوهر(الله) عند سبينوزا:

يعتبر الجوهر عند "سبينوزا" هو الفكرة الأساسية، بل هو نقطة الانطلاق في فلسفته وذلك لأنه يهتم بموضوعات العقل الأولى في البحث عن الحقائق الأساسية في الكائنات.

ولفظ "جوهر" يوجد له عدة مظاهر مشتركة مع النظرة اللاهوتية المدرسية لله فاستعمل مصطلح الجوهر للدلالة على لفظ الله[1] .

ولقد عرف "سبينوزا" الجوهر بقوله: "أعنى بالجوهر ما يوجد في ذاته ويتصور بذاته: أي مالا يتوقف إنشاء تصوره على تصور شئ آخر"[2]

كما عرف "الإله" بـ: "أنه هو الموجود اللامتناهي أي الجوهر المتشكل على صفات لا تتناهى، كل واحدة منها تنم عن جوهر أزلي وغير متناه"

ومن هذين التعريفين يتضح أن الإله هو الجوهر الأوحد الذي بدونه لا يوجد أي جوهر، بل ولا يدرك. ومعنى هذا أن الإله يشتمل في ذاته على كل ما يوجد، وأنه هو العلة غير المفارقة لكل شئ[3].

وقد عرف اسبينوزا الإله في كتابه علم الأخلاق فقال: "أعني بالله: كائناً لا متناهياً إطلاقاً، أي جوهراً يتألف من عدد لا محدود من الصفات تعبِّر كل واحدة منها عن ماهية أزلية لا متناهية"[4].

ويرى "سبينوزا" أن كلمتي "الله والطبيعة يحل كل منهما مكان الأخرى؛ وذلك لأن الطبيعة

(1) ريتشارد شاحت، رواد الفلسفة الحديثة، ترجمة: د. أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، سلسلة الألف كتاب الثاني (١٣٢)، ١٩٩٣م، ص٩٢.

(2) سبينوزا: علم الأخلاق، ترجمة: جلال الدين سعيد، ص٣٠.

(3) د. محمد غلاب: المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة، ص١٢١.

(4) سبينوزا: علم الأخلاق، ترجمة: جلال الدين سعيد، ص٣١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالمعنى العام الذي يعني الموجود العام للعالم، يطلق عليه الطبيعة الطابعة أو الخالقة.[1] فالجوهر من هذه الناحية هو الطبيعة الطابعة من حيث هو مصدر الصفات والأحوال والأعراض.

فـ "الله" و"الطبيعة" و"الجوهر" مصطلحات ثلاثة استخدمها سبينوزا ليعبر بها عن تصوره لله، فرأى بإمكانية إحلال الكلمتين (الله والطبيعة) كل منهما مكان الأخرى، ثم عاد ورأى أن مصطلح "الجوهر" هو أكثر المصطلحات الثلاثة صلاحية للقيام بدور أساس المعنيين الآخرين معاً. إلا أن أحد الباحثين يرى أنه كان من الأفضل لسبينوزا أن يتجنب استخدام لفظ "جوهر" للدلالة على "الله"؛ لأن كلمة "جوهر" الذي تصور وجوده له مظاهر مهمة مشتركة هي والنظرة اللاهوتية المدرسية (الإسكولائية) لله. فكان من الأفضل أن يستعمل مصطلح "الله" للدلالة على هذا الجوهر بعدم وجود شئ آخر ينطبق عليه هذا اللفظ[2].

بينما يرى آخرون أنه من المؤسف أن يستخدم سبينوزا لفظ "الله"؛ لأن ما يدل عليه في النسق الإسبينوزي ليس هو الله في استخدامه اللغوي المعتاد، "فيرى "كوليروس" أنه عندما يختبر المرء ما يقوله سبينوزا عن الله اختباراً دقيقاً يجد أن إلهه ليس إلا شبحاً، وإلهاً خيالياً، وهو أبعد ما يكون عن الله، فهو يستبيح لنفسه استخدام اسم "الله" وفهمه بمعنى لم يعرفه أحد من المسيحيين حتى اليوم، فيفسر "كوليروس" إله سبينوزا على أنه ليس سوى الطبيعة اللامتناهية حقاً، ولكنها جسمية ومادية منظور إليها في كليتها وبجميع أحوالها؛ ولهذا كله لم يجد "كوليروس" مفراً من أن يصف مذهب سبينوزا بأنه "أفجر إلحاد في العالم"[3].

وإذا كان الباحث لا يتفق مع مقولة "كوليروس" السابقة، ولا مع ما يناقضها عند "نوفالس" صاحب المقولة الشهيرة عن سبينوزا بأنه "رجل منتشٍ بالله"، فإنه مع ذلك يرى

(1) د. محمود حمدي زقزوق: دراسات في الفلسفة الحديثة، دار الطباعة الحمدية، بالأزهر، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ص١٣٧، ويقصد سبينوزا (بالطبيعة الطابعة) قوانين الطبيعة لا الأشياء الحادثة التي تمثلها الظواهر المتناهية.

(2) ريتشارد شاخت، رواد الفلسفة الحديثة، ترجمة: د. أحمد حمدي محمود، ص٩٢.

(3) فؤاد زكريا : سبينوزا، الناشر: مؤسسة هنداوي، ب . ت، ص١٠٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن رؤية "كوليروس" تحمل الكثير من أوجه الحقيقة؛ لأن ما يدل عليه لفظ Deus عند سبينوزا ليس هو "الله" في استخدامه اللغوي المعتاد، وأن استخدامه في النسق الإسبينوزي يؤدي إلى الكثير من التضليل الذي تؤدي إليه الارتباطات المعتادة لكلمة الله. ويبدو أن سبينوزا قد استخدمه فقط؛ ليتفادى حملة رجال اللاهوت عليه، وتفادياً لظروف العصر الذي كان يعيش فيه، إذ إن سبينوزا كما يقول فؤاد زكريا: "كان يخشى ثورة هذا القارئ العادي لو أطلعه على أفكاره مباشرة، وكان يتعمد تجنب استفزازه، في الوقت الذي أعطى فيه القارئ اليقظ مفاتيح لأفكاره الحقيقية"(١).

مما سبق يتضح لنا لماذا كان لفظ الجوهر هو الأنسب لتصورات سبينوزا ذات الفهم الجديد لطبيعة الله وعلاقته بالعالم. وقد قَبِل سبينوزا تعريف ديكارت للجوهر بأنه "شئ موجود لا يتطلب شيئاً سوى ذاته ويُتصور بذاته: أي ما لا يتوقف بناء تصوره على تصور شئ آخر"(٢).

وبهذا يفرق سبينوزا بين تصورين للأشياء، فمن الممكن أن نتصور أشياء يُستطاع تفسير وجودها وخصائصها وحالاتها الخاصة بالرجوع إلى أشياء أخرى غيرها بالذات. وتصور أشياء أخرى يتيسر وجودها وخصائصها وحالاتها بالرجوع إليها ذاتها. وفي ذلك يقدم سبينوزا بديهيتين تخصان هذا الأمر فيقول: "كل ما يوجد إنما يوجد في ذاته أو في شئ آخر، وإن ما يتعذر تصوره بشئ آخر لابد من تصوره بذاته"(٣) أما الأشياء من الفئة الأولى التي نستطيع تفسيرها بالرجوع إلى أشياء غيرها بالذات، فهي تلك الأشياء التي تكون علة نفسها ولا يوصف الشئ بأنه علة ذاته إلا إذا كان وجوده وجميع خصائصه وحالاته الجزئية جميعاً قد نجمت عن تأثير طبيعته الأساسية، وإذا كان هذا الشئ قادراً على التأثر على أي نحو بأي شئ غير ذاته، أو إذا كان وجوده يفترض سبق افتراض شئ آخر فإنه لن يكون

(١) فؤاد زكريا : سبينوزا، ص١١٠، ١١١.

(٢) باروخ سبينوزا: علم الأخلاق، ترجمة : جلال الدين سعيد، مراجعة: جورج كتورة، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م، ص٣١.

(٣) باروخ سبينوزا: علم الأخلاق، ترجمة : جلال الدين سعيد، مراجعة: جورج كتورة، ص٣٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

علة ذاته. ومن ثم يقول سبينوزا: "أعني بعلة ذاته ما تنطوي ماهيته على وجوده، وبعبارة أخرى ما لا يمكن لطبيعته أن تتصور إلا موجودة"[1]

نستطيع الآن أن نفهم لماذا استخدم سبينوزا مصطلح "الجوهر" مرادفاً لمصطلح "الله"، فالجواهر . عند الفلاسفة[2] . هي تلك الأشياء القادرة على الوجود مستقلة عن الأشياء الأخرى، باعتبار الجواهر تقابل على سبيل المثال "الكيفيات" التي ليس بمقدورها الوجود اعتماداً على ذاتها. ومن ثم كان تعريفه السابق للجوهر بأنه ما يوجد في ذاته ويُتصور بذاته: أي ما لا يتوقف بناء تصوره على تصور شئ آخر.

وفي نظر سبينوزا، لا المتناهيات الممتدة ولا الجواهر المفكرة عند ديكارت ولا المونادات المخلوقة لليبنتز تستحق حقاً اسم الجواهر، أما النوع الأوحد من الشئ الذي يستطاع تفسير وجوده بالرجوع إلى طبيعته فحسب، فإنه قد يكون شيئاً إذا لم يوجد، فإنه سيكون مناقضاً لطبيعته الأساسية، ومن ثم فإما أن يكون هناك هذا الكيان الموجود بالضرورة، أو لا يكون هناك جوهر حق على الإطلاق[3].

وبعد أن قدم سبينوزا هذا الفهم للجوهر بدأ يجمع بين لفظي الله والجوهر، ويقول: الله أو الجوهر المؤلف من صفات لا متناهية تعبر كل منها عن ماهية أزلية لا متناهية موجودة بالضرورة، ومن ثم بدأ يسقط لفظ الجوهر، ويستخدم لفظ "الله" ويعني به كائناً لا متناهياً إطلاقاً، أي جوهر يتألف من عدد لا محدود من الصفات تعبر كل واحدة منها عن ماهية

(1) المصدر السابق، ص٣١.

(2) الجوهر في الفلسفة اليونانية: هو القائم بنفسه والذي لا يعتمد وجوده على شئ آخر، نفس الأمر نجده في الفلسفة الإسلامية؛ فالجوهر عند الكندي: هو القائم بنفسه، وهو حامل للأعراض، لم تتغير ذاتيته، موصوف لا واصف. وعند المدرسيين: يطلق اسم الجوهر بالتشكيك على الله والمخلوقات، وفي الفلسفة الحديثة: عرّف ديكارت الجوهر بأنه الوجود الذي يوجد بذاته دون أن يعتمد وجوده على موجود آخر. (مراد وهبه، المعجم الفلسفي، القاهرة، دار قباء للنشر والتوزيع، ١٩٩٨م، ص٢٦٨ . ٢٧٠).

(3) ريتشارد شاخت، رواد الفلسفة الحديثة، ترجمة: د. أحمد حمدي محمود، ص٩٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أزلية لا متناهية[1] فالله إذن عند سبينوزا أزلي ولا متناهي حيث الأزلية واللاتناهي من طبيعته وطبيعة الجوهر.

وبالتالي يرى سبينوزا أن "الله" هو الحقيقة الوحيدة الأساسية في الكون. وهذا الجوهر أزلي؛ لأنه إذا لم يكن كذلك سيسبقه شئ آخر ويكون علة وجوده، ولا يكون مكتفياً بذاته. ولابد أن يكون كاملاً وتاماً، وإلا سيكون متناهياً ومحدوداً[2].

ونرى هنا تأثر سبينوزا الواضح بديكارت في مسألة الجوهر هذه، فإذا كان ديكارت قد تصور الله على أنه جوهر لا متناهي أزلي منزه عن التغير، قائم بذاته، محيط بكل شئ، قادر على كل شئ، خلق جميع الأشياء الموجودة[3]، ولذلك كان (الله) هو الجوهر الوحيد الخليق باسم الجوهر والجدير بهذه التسمية؛ لأنه يتقوم بذاته وفي ذاته، ولا يفتقر إلى غيره إطلاقاً، لكن ليس معنى هذا أنهما يتفقان تمام الاتفاق، بل يوجد اختلاف بين سبينوزا وديكارت، ونرى أوجه الاختلاف بينهما، في أنه إذا كان الله عند سبينوزا هو الجوهر الأوحد فإننا نجد ديكارت يشير إلى الفكر والامتداد على أنهما جوهران، صحيح أن ديكارت يقر بحاجتهما وافتقارهما إلى الله وحده لا إلى شئ مخلوق، وبذلك نجد ثلاثة جواهر عند ديكارت هي: الله، الفكر، الامتداد في مقابل جوهر واحد أوحد هو الله عند سبينوزا الذي لا يمكن أن يتصورجوهر آخر بجانبه. كما أنه إذا كان الله هو الذي خلق كافة الموجودات عند ديكارت، فإن الله عند سبينوزا لم يخلق الموجودات لأنه هو والطبيعة شئ واحد؛ ولأن هذه الطبيعة لم تكن غير موجودة ثم وجدت.

كما يظهر أيضاً تأثر سبينوزا بمذهب (جيوردانو برونو) (١٥٤٨ . ١٦٠٠) صاحب النزعة الواحدية في الميتافيزيقا والأخلاق، الذي رأى أن كل شئ في الكل، والكل شيئاً واحداً،

(١) باروخ سبينوزا: علم الأخلاق، ترجمة : جلال الدين سعيد، مراجعة: جورج كتورة ص٣١ . ٣٢.

(٢) وليم كلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، ترجمة: محمود سيد أحمد، مراجعة: إمام عبد الفتاح إمام، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥م، ص١١٧.

(٣) ديكارت: التأملات في الفلسفة الأولى، ترجمة عثمان أمين، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨م، ص١٢٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فالله هو المبدأ والعلة والواحد الأبدي من حيث هو الطبيعة نفسها، أو من حيث إنه يتجلى لنا في نطاق هذه الطبيعة وفي ثناياها؛ فالله والطبيعة الجوهرية شئ واحد، والتجلي الوحيد الممكن للإله هو التجلي الطبيعي.

ولهذا نجد برتراند رسل يؤكد على هذا التأثير لبرونو على سبينوزا، قائلاً: "وميتافيزيقا "سبينوزا" هي أفضل مثل لما يمكن أن ندعوه "الواحدية المنطقية" . وهي القائلة بأن العالم ككل جوهر واحد لا يسع جزء من أجزاءه أن يوجد وحده"[١]

كما نجد (جيمس كولينز) يؤكد على هذا التأثير لبرونو على سبينوزا فيقرر: "أن برونو قد مهد تمهيداً ملحوظاً لظهور سبينوزا؛ إذ رأى أن برونو قد عبر تعبيراً كلاسيكياً عن مذهب شمول الألوهية بوصفه مذهباً في واحدية الجوهر والطبيعة"[٢].

* **صفات الجوهر (الله أو الطبيعة) عند سبينوزا:** يوجد للجوهر عند "سبينوزا" عدة خصائص أهمها:

١. "أن الجوهر علة نفسه . أي لا يحتاج ولا يمكن أن يحتاج إلى شئ غيره ليبرر وجوده"[٣]. بعبارة أخرى: "أن الجوهر علة ذاته، أي أن ماهيته تنطوي على وجودها، وإلا كان الجوهر موجوداً بغيره، فكان متصوراً بهذا الغير لا بذاته ولم يكن جوهراً.(وهذا هو الدليل الوجودي. وإلى جانبه اصطنع سبينوزا حجة ديكارت القائلة: إنه كلما كانت طبيعة الشئ حاصلة على حقيقة أعظم، كان الشئ أقدر على الوجود، وللموجود اللامتناهي، أو الله، قدرة لا متناهية على الوجود، ومن ثمة فهو موجود بالضرورة"[٤]

٢. أن الجوهر لا متناه إذ لو كان محدوداً لكان لتلك الحدود بعض التأثير عليه[٥].

(١) برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث، الفلسفة الحديثة، ص١٣٢.

(٢) جيمس كولينز: الله في الفلسفة الحديثة، ترجمة: فؤاد كامل، القاهرة، دار قباء للنشر والتوزيع، ١٩٩٨م، ص٣٤.

(٣) برتراند رسل: حكمة الغرب، ج٢، ص٨١، سلسلة عالم المعرفة . الكويت.

(٤) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، ط٥، ص١١١ .

(٥) برتراند رسل: حكمة الغرب، ج٢، ص٨١، سلسلة عالم المعرفة . الكويت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٣. أن الجوهر واحد، إذ لو كان هناك جوهران أو أكثر لكان كل جوهر يحد الآخر ولبطل أن يكون الجوهر جوهراً أي متصوراً بذاته.

٤. أن الجوهر أزلي موجود بالضرورة فإذا وجد شئ عداه يكون "صفة" له أو حالاً جزئياً يتجلى فيه الجوهر[١].

والجوهر أزلي وضروري، والحقائق الأزلية لم يفرضها بإرادته، فهو لا يفعل لغاية ولكنه يفعل بوصفه علة ضرورية[٢].

٥. أن الجوهر: ما هو في ذاته ومتصور بذاته، أي غير مفتقر لمعنى شئ آخر يكون منه. فهو علة ذاته، ويستمد وجوده من ذاته، وليس هناك وجود خارج ذاته"[٣].

هذا الجوهر الواحد منتشر في صفات لا تتناهى، ولكننا لا نعرف منها إلا صفتين وهما: (الفكر والامتداد). وهاتان الصفتان ليستا جوهرين مختلفين كما هما عند ديكارت . وإنما هما فقط مظهران من الصفات الإلهية[٤]..

وبناءً على ذلك فإننا إذا أدركنا أن الجوهر علة ذاته، لا متناه واحد أزلي ضروري، علة حرة لجميع الأشياء، وجميع الأشياء كامنة فيه. نجد بناء على هذا أن:

"الجوهر يساوي مفهوم الله ويساوي في الوقت نفسه أيضاً عنده مفهوم الطبيعة: وهكذا نجد المعادلة التالية في بداية أفكار سبينوزا: الجوهر = الله = الطبيعة

وهذه الأفكار التي توحد بين الله والطبيعة على هذا النحو هي بعينها مذهب وحدة الوجود الذي تجعل الله والعالم حقيقة واحدة.

وقد أثارت آراء سبينوزا ثائرة رجال الدين على اختلاف مذاهبهم، فالتوحيد بين الله والطبيعة يجعل إله سبينوزا يختلف اختلافاً تاماً عن إله الأديان: فهو . في نظر سبينوزا . ليس مشخصاً، لأنه لو كان كذلك لكان معيناً، وكل تعيين هو تحديد يجعله كائناً متناهياً. وبناء

(١) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، ط٥، ص١١١ .

(٢) د. محمود زقزوق: دراسات في الفلسفة الحديثة، ص١٣٦.

(٣) د. محمود زقزوق: دراسات في الفلسفة الحديثة، ص١٣٦.

(٤) د. محمد غلاب: المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة، ص١٢١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على ذلك لا يمكن أن ينسب إليه عقل ولا إرادة لأنهما يفترضان الشخصية. وجوهر سبينوزا يعلو فوق العقل والإرادة"[1].

ولذا يقول برتراند رسل: "ومذهب "سبينوزا" الميتافيزيقي هو من النمط الذي افتتحه "بارمنيدس" . فثمة جوهر واحد فقط، "الله أو الطبيعة". وليس ثمة شئ متناه موجود بذاته. وقد سلم "ديكارت" بثلاثة جواهر، الله والذهن والمادة، والحق أنه حتى عند "ديكارت" كان الله أشد جوهرية من الذهن والمادة، مادام هو الذي خلقهما، وفي وسعه لو شاء أن يعدمها. ولكن باستثناء ما يتعلق بما لله من قدرة عليا، فالذهن والمادة جوهران مستقلان، يعرفان على التوالي بصفتي الفكر والامتداد. ولن يكون لدى "سبينوزا" شئ من هذا. فعنده أن الفكر والامتداد معاً من صفات الله. ولدى الله كذلك عدد لا متناه من الصفات الأخرى مادام يلزم له في كل حالة أن يكون لا متناهياً. ولكن هذه الصفات الأخرى مجهولة لنا. والنفوس الفردية والأجزاء المنفصلة للمادة هي عند "سبينوزا" نعتية، هي ليست أشياء، بل محض مظاهر للكائن الإلهي. ولا يمكن أن يكون هناك شيء من قبيل الخلود الشخصي كما يعتقد المسيحيون ولكن فقط ذلك النوع اللاشخصي، الذي يتمثل في أن يغدو شيئاً فشيئاً واحداً مع الله. والأشياء المتناهية تتعرف بحدودها المادية أو المنطقية، أي بما ليس هي: "فكل تحديد هو نفي". ولا يمكن أن يكون هنالك إلا كائن واحد يكون إيجابياً على التمام، ويجب أن يكون لا متناهياً على الإطلاق. ومن ثم انقاد "سبينوزا" إلى حلول تام ومطلق.

وكل شئ تبعاً "لسبينوزا" تحكمه ضرورة منطقية مطلقة. وليس ثمة شيء من قبيل الإرادة الحرة في المجال العقلي أو الصدفة في العالم المادي. فكل شئ يحدث فهو تجل لطبيعة الله التي لا يمكن فهمها، ومن المستحيل منطقياً أن تكون الأحداث غير ما هي عليه. ويؤدي هذا إلى صعوبات بصدد الخطيئة، لم يبطئ النقاد في التنبيه إليها. فواحد منهم، بعد أن لاحظ أن كل شيء، تبعاً لسبينوزا، قد قضى به الله وأنه من ثم خير، يتسائل مستنكراً:

(1) د. محمود زقزوق: دراسات في الفلسفة الحديثة، ص١٣٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هل كان خيراً أن يكل آدم من التفاحة؟ ويجيب "سبينوزا" بأن ما كان إيجابياً في تلك الأفعال فهو خير، وفقط ما كان سلبياً فهو شر، ولكن السلب يوجد فقط من وجهة نظر المخلوقات المتناهية. وفي الله، وهو وحده الحقيقي على التمام، ليس ثمة سلب، ومن ثم فالشر فيم يبدو لنا خطايا لا يوجد عندما ينظر إليها كأجزاء من كل. هذه النظرية وإن كان قد أخذ بها معظم الصوفية على هذه الصورة أو تلك، لا يمكن بوضوح التوفيق بينها وبين النظرية التقليدية للخطيئة واللعنة. وهي مرتبطة برفض "سبينوزا" رفضاً تاماً للإرادة الحرة. وبالرغم من أن "سبينوزا" لم يكن جدلياً بالمرة، فقد كان أشرف من أن يخفي آراءه مهما صدمت معاصريه، ومن ثم فمقت تعاليمه لا يدهشنا"[1].

ويرى برتراند رسل: "أنه لا يستطيع أن يتقبل منهج سبينوزا بسبب الميتافيزيقا عنده، قائلاً: "لقد كان من لب مذهبه من الناحية الأخلاقية ومن الناحية الميتافيزيقية سواء بسواء، الأخذ بأن كل شئ يمكن البرهنة عليه، ومن ثم كان انتاج البراهين شيئاً جوهرياً. ونحن لا نستطيع أن نتقبل منهجه لأننا لا نستطيع أن نتقبل ميتافيزيقاه، ونحن لا نستطيع أن نعتقد بأن ارتباطات أجزاء العالم بعضها بالبعض الآخر ارتباطات منطقية، لأننا نأخذ بأن القوانين العلمية تكتشف بالملاحظة، لا بالاستدلال وحده، ولكن عند سبينوزا المنهج الهندسي ضروري، ومرتبط بأشد أجزاء نظريته جوهرية"[2].

*** المنهج الهندسي عند سبينوزا لاثبات وجود الله وصفاته:**

تأثر "سبينوزا" بالمبادئ الأولى من منهج ديكارت تأثراً عميقاً، فأعلن . مثله . أن الحقيقة الأساسية هي ما بلغ يقينها في العقل حد البداهة ثم جاهد نفسه في أن يثبت على طريقة الهندسيين ما يلي:

أن الإله هو الجوهر الأوحد، وأنه وحده علة جميع الموجودات لنفس السبب الذي به لم يكن معلولاً لغيره، وأن جميع الكائنات المعلولة له هي بالضرورة مفهومة في كينونته.

(1) برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث، الفلسفة الحديثة، ص١٢٣، ١٢٤ .

(2) المرجع السابق، ص١٢٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فكرة الجوهر إذاً، هي الفكرة الأساسية في فلسفة سبينوزا، وقد نشأ ذلك عنده من أنها هي أولى موضوعات العقل حين يبحث عن الحقائق الأساسية في الكائنات، وقد استدعى ذلك بالمقابلة التفكير في أن الإله هو الموجود الثابت في كل موجود، بل هو علة وجوده، وبالتالي هو العلة الأزلية لجميع الكائنات. وهو يعرف الجوهر بما يلي: "هو ما يوجد في ذاته وبذاته، وما يعرف بذاته"(١)

وكما يعرف الجوهر هو يعرف الإله بما يأتي: "إنه هو الموجود اللامتناهي أي الجوهر المشتمل على صفات لا تتناهي، كل واحدة منها تنم عن جوهر أزلي وغير متناه"(٢)

"ومن هذين التعريفين ينتج أن الإله هو الجوهر الأوحد الذي بدونه لا يوجد أي جوهر، بل ولا يدرك. ومعنى هذا أن الإله يشتمل في ذاته على كل ما يوجد، وأنه هو العلة المفارقة لكل شيء، وهذا هو أكبر الفروق بين الإلهية البسيطة التي حَسْبُها أن تقرر أن كل شيء مخلوق للإله، وبين وحدة الوجود التي تقرر أن كل ما يوجد هو في الإله"(٣).

وإذا كان ديكارت قد قرر أن جوهر النفس هو الفكر، وجوهر المادة هو الامتداد الحسي، أي أن هناك جوهرين متعارضين، وقرر من ناحية أخرى أن في الإله كمالات هي التي تسود كل أنواع الموجودات الأساسية في الطبيعة. أما سبينوزا فإنه يخالف في هذه النقطة فيقرر أنه لا يوجد إلا جوهر واحد وهو الجوهر الإلهي المنتشر في صفات لا تتناهى، ولكننا لا نعرف منها إلا صفتين وهما: الفكر والامتداد. وهاتان الصفتان ليستا جوهرين مختلفين، وإنما هما فقط مظهران من الصفات الإلهية، غير أنه لا ينبغي أن يفهم الفكر هنا على ما يصوره لنا الخيال مقيساً على الذهن والإرادة البشريين، وإنما هو صفة أسمى من أن تقاس على ما هو أدنى منها أو انتزع منه، وكذلك الامتداد هنا ليس هو الامتداد المنقسم أو القابل للانقسام الذي يتمثله خيالنا والذي أجزاؤه الأجسام، وإنما هو الامتداد الإلهي الذي لا جسم له ولا قسم ولا قسيم.

(١) سبينوزا: علم الأخلاق، ترجمة: جلال الدين سعيد، ص٣١

(٢) المصدر السابق: ص٣١.

(٣) د. محمد غلاب: المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة، ص١٢١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما العالم عنده فهو منبثق من الإله، لأنه يرفض نظرية الخلق من اللاشئ ويجدها غير مطابقة للعقل، وهو

يشرح رأيه هذا على النحو التالي:

إن صفات الإله غير المتناهية لابد أن تُنتج بالضرورة النتائج التي تعبر عنها وتمثلها .كما يمثل كل معلول علته . مع احتفاظها بخصائصها كنتائج. فمثال ذلك أن الإله كعقل ينشئ الفكر غير المتناهي الذي منه تنبثق الفكر الفردية، وأنه كامتداد ينشئ الحركة والسكون اللذين تنبثق منهما الأجسام. ومن هنا يرى أن النتائج لا توجد إلا بالصفات وفيها، وذلك ارتباط غير متناه بين نتائج متناهية.

لا ريب أن هذا الرأي يذكرنا بوحدة الوجود الاسكندرية؛ ولكن الانبثاق هنا ليس فيضاً تنسكياً كما هو هناك، وإنما هو ادعاء المقدرة على شرح الاتصال بين صفات الإله ونتائجها كأنه اتصال شكل هندسي بالخصائص التي تنشأ عنه بالضرورة[1].

"فمذهب سبينوزا أن الكون والطبيعة جوهر واحد، لأن الجوهر ما قام بنفسه، أو هو واجب الوجود وهو لا يتعدد.

ولهذا الجوهر فكر وامتداد، وكل ما في الوجود من المعقولات والمحسوسات فهو مظاهر للفكر أو للامتداد. فالفكر تبدو مظاهره في عقل الإنسان، والامتداد تبدو مظاهره في الأجسام. والله علة الأشياء كلها بالمعنى الذي تفهمه من أنه هو علة نفسه فليس خارج اللانهاية شئ، والله هو اللانهاية. وإنما الفرق بين الله ومجموعة الظواهر المتفرقة أن مجموعة الظواهر المتفرقة تمثل الجانب المخلوق، وأن الله يمثل الجانب الخلاق"[2].

*** أدلة وجود الله عند سبينوزا:**

يقدم سبينوزا براهين عقلية مختلفة على وجود الله، بنزعة عقلية يتميز بها في مناقشة فلسفته في الدين على وجه العموم، وجاءت براهينه على النحو التالي:

(1) د. محمد غلاب: المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة، ص١٢٢، ١٢٣.

(2) العقاد: الله، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، فبراير ٢٠٠١م، ص١٣١، ١٣٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البرهان الأول: ينص هذا البرهان على أن "تصور الله يعني تصوره كجوهر . وينتمي الوجود إلى طبيعة الجوهر، لأن "من طبيعة الجوهر أن يكون موجوداً"[1]؛ لأن الجوهر لا ينتج عن شئ آخر ومن ثم فلا يتصور الله إلا كموجود. أما تصور عدم وجوده فيكون محالاً؛ لأن إنكار وجوده سيحتوي على تناقض ذاتي، ومن ثم فإن الله موجود[2].

البرهان الثاني: يقول "سبينوزا": "إنه لا بد أن يكون لكل شئ سبب أو علة معينة تفسر وجود هذا الشئ

أو عدم وجوده. والشئ الذي لا يمنع وجوده سبب أو علة إنما هو واجب الوجود. ذلك إن لم توجد علة أو سبب لمنع وجود الله أو لنزع الوجود عنه فلا مناص من استخلاص وجوده الضروري إلا أن افتراض هذه العلة أو السبب يقتضي إما وجودها ضمن طبيعة الله وإما خارجها أي ضمن جوهر من طبيعة أخرى، لأنه لو كان هذا الجوهر من نفس طبيعته لكان في ذلك تسليم بوجود إله. بيد أنه لا يمكن لجوهر من طبيعة مغايرة أن يشارك الله في شئ وهو لا يمكنه إذاك أن يضع وجوده أو يرفعه. ولما كان عندئذ من غير الممكن أن نجد علة أو سبب نزع الوجود عند الله خارج طبيعته، فمن الضروري إذا أردنا إنكار وجود الله، أن تتضمن طبيعته الخاصة هذه العلة بحيث تصبح هذه الطبيعة متضمنه لتناقض؛ إلا أنه من العبث أن تثبت ذلك بالنسبة إلى موجود لا متناه إطلاقاً وفي غاية الكمال. فلا وجود إذن، في الله أو خارجه، لأي علة أو سبب لنزع الوجود عنه، وبالتالي فإن الله واجب الوجود"[3].

فهذا الدليل يعتمد على أن الشئ يعد موجوداً بالضرورة إذا لم يُسلم بعلة أو سبب يحول دون وجوده، فإذا سلمنا بهذه المقدمة . كما يقول سبينوزا . كان بمقدورنا الاستدلال على النحو التالي: إذا لم يكن بالاستطاعة تقديم سبب أو علة تَحُول دون إثبات وجود الله ، أو تلغي وجوده، فعلينا أن نستخلص بالتأكيد أنه موجود بالضرورة. فإذا عرض مثل هذا

(1) باروخ سبينوزا: علم الأخلاق، ترجمة : جلال الدين سعيد، مراجعة: جورج كتورة، ص٣٥.

(2) ريتشارد شاخت: رواد الفلسفة الحديثة، ترجمة: أحمد حمدي محمود، ص٩٥.

(3) باروخ سبينوزا: علم الأخلاق، ترجمة: د. جلال الدين سعيد، مراجعة: جورج كتورة ص٤١، ٤٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السبب أو هذه العلة، فلابد أن تكون مستخلصة من طبيعة الله ذاته أو تكون خارجة عنه.. ولكن جوهر الطبيعة الأخرى لن يشترك هو والله في أي شئ.. لأنه قد بيّن سبينوزا هذا قائلاً: "الجوهران اللذان يملكان صفات متباينة إنما هما لا يتفقان في شئ"[1]. ومن ثم فإن جوهر الطبيعة الأخرى سيعجز عن أن يُحدث الله أو يلغيه، إن طبيعة الله لا تتضمن أي تناقض، ومن ثم يكون الله موجوداً[2].

ويقول وليم كلي رايت موضحاً الغموض في هذا الدليل: "إنه يرى أن تصور الله لا يتضمن تناقضاً منطقياً يجعل وجوده مستحيلاً فيجب أن يكون موجوداً"[3].

البرهان الثالث: يقول سبينوزا: "لما كانت القدرة على الوجود هي القوة، فإنه يترتب على ذلك أنه كلما ازدادت نسبة الواقع الذي ينتمي إلى طبيعة شئ ما كان له بذاته أكثر قدرة على الوجود. وهكذا فإن الكائن اللامتناهي إطلاقاً أعني الله، له بذاته قدرة لا محدودة إطلاقاً على الوجود، وبالتالي فهو موجود إطلاقاً. [4]

ثانياً: (العَرَض) عند "سبينوزا":

بعد أن تحدث سبينوزا عن (الجوهر) وخصائصه، نجده يتحدث عما يقابل الجوهر وهو (العرض) الذي لا يستمد وجوده من ذاته بل وجوده مشروط بغيره. وهذا يمثل عالم الظواهر المتناهية، أي الطبيعة بوصفها مفهوماً شاملاً للأشياء المتناهية، ويطلق عليها الطبيعة المطبوعة أو المخلوقة.

وقد وضح "سبينوزا" هذه الفكرة في قوله: "إني أتصور الله والطبيعة في صورة تختلف تماماً عن الصورة التي يصورها المسيحيون المتأخرون عادة، لأنني أعتقد أن الله هو الأصل وليس الطارئ، وأن الله هو السبب لجميع الأشياء. أقول: إن كل شئ كامن في الله، وكل شئ يحيا ويتحرك في الله، وإنني متفق في هذا مع الرسول "بولس" وربما أكون متفقاً مع كل واحد من

(1) المصدر السابق: ص٣٣.

(2) ريتشارد شاخت، رواد الفلسفة الحديثة، ترجمة: د. أحمد حمدي محمود، ص٩٧ .

(3) وليم كلي رايت: تاريخ الفلسفة الحديثة، ترجمة: محمود سيد أحمد، مراجعة: إمام عبد الفتاح إمام، ص١١٨ .

(4) باروخ سبينوزا: علم الأخلاق، ترجمة: د. جلال الدين سعيد، مراجعة: جورج كتورة، ص٤٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فلاسفة القدم. على الرغم من أن طريقتي تختلف عن طريقتهم، وقد أجرؤ على القول أن رأيي هو نفس الرأي الذي جاء به العبرانيون في القدم. على كل حال لقد أخطأ فهمي أولئك الذين يقولون إن غرضي هو أن أبين أن الله والطبيعة شئ واحد، والقائلون بهذا يفهمون من لفظ الطبيع كتلة معينة من المادة المجسدة، إنني لا أقصد ذلك"[1].

ثم يوحد سبينوزا بين القانون الطبيعي والأمر الإلهي، فيقول: "إن قوانين الطبيعة العامة وأوامر الله الخالدة شئ واحد. وأن كل الأشياء تنشأ من طبيعة الله اللانهائية كما ينشأ من طبيعة المثلث أن زواياه الثلاث تساوي قائمتين، وأن الله بالنسبة إلى العالم كقوانين الدوائر بالنسبة إلى الدوائر كلها. فالله هو السلسلة السببية، الكامن وراء كل الأشياء، وهو قانون تركيب العالم. وهذا الكون المتماسك من الأعراض والأشياء من الله بمثابة الجسر من تصميمه وبنائه، وتركيبه والقوانين الرياضية والميكانيكية التي بني عليها"[2].

فإرادة الله وقوانين الطبيعة عند "سبينوزا" اسمان يطلقان على حقيقة واحدة. ويتبع ذلك أن كل الأحداث التي تقع في العالم ما هي إلا نتيجة آلية لقوانين الطبيعة الثابتة وليست هذه الآلية قاصرة على المادة والجسم فقط كما ذهب "ديكارت" بل يرى "سبينوزا" أنها تشمل الله والعقل أيضاً[3].

والجوهر اللامتناهي أو الله هو من ناحية امتداد لا متناهي (أي ليس جسماً، لأن كل جسم يكون محدوداً)، ومن ناحية أخرى هو فكر لا متناهي (أي ليس فكراً معيناً أو محدوداً).

وحيث إن كل شئ في الله، فإن كل كائن فردي يمكن أن ينظر إليه أيضاً بهذين الاعتبارين: فباعتبار الفكر يظهر الكائن الفردي بوصفه فكرة، وباعتبار الامتداد يظهر بوصفه جسماً. وهكذا ليس هناك جوهران

(1) ول ديورانت: قصة الفلسفة، ترجمة: د. محمد فتح الله المشعشع، ص٢١٦، ٢١٧ .

(2) المرجع السابق، ص٢١٧ .

(3) نفس المرجع، ص٢١٧، ٢١٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مختلفان، وإنما هو جوهر واحد يجب أن ينظر إليه بالاعتبارين المشار إليهما"[1].

والخلاصة: أننا نرى أن سبينوزا مادام قرر أنه لا يوجد سوى واحد في الكون، وهذا الجوهر هو الله، كما قرر أن الفكر والامتداد صفتان لله، ويعرف سبينوزا الصفة بقوله: "أعني بالصفة ما يدركه الذهن في الجوهر مقوماً لماهيته" [2]. ولأن الله لا متناه فلابد أن يكون له عدد من الصفات اللامتناهية، غير أننا لا نعرف سوى الفكر والامتداد، وكل صفة من هاتين الصفتين لا متناهية في نوعها، لكنها ليست لا متناهية بصورة مطلقة مثل الله.

وقد أجمل سبينوزا ما استطرد في شرحه وتفسيره عن صفات الله وخصائصه، فقال: "تتمثل طبيعة الله وخواصه: في أنه واجب الوجود، وأنه واحد أحد، وأنه يوجد ويتصرف بضرورة طبيعته وحدها، وأنه العلة الحرة للأشياء جميعاً، وكيف يكون هكذا، وإن جميع الأشياء قائمة فيه، وتابعة له، بحيث لا يمكن لأي شئ أن يوجد ويتصور بدونه، وأخيراً أنه قدر الأشياء جميعاً بإرادة حرة، أعني ليس حسب هواه بإطلاق، وإنما بناء على طبيعته المطلقة، أي على قدرته اللامحدودة" [3].

فمسألة الله تعتبر هي مرتكز منهج سبينوزا من منظور تصوره الواحد للوجود. فالإله بالنسبة له هو علة كل الموجودات المحايث لها. فهو الجوهر الموجود بالضرورة، وهو الموجود الأوحد يتجلى بصفاته غير المحدودة التي لا نعرف منها سوى صفتي الامتداد والفكر.

*** الجبرية (الحتمية) الكونية:**

إن العالم أوالكون في مذهب سبينوزا لا يفيد معنى الخلق من العدم، بل هو لازم لزوم الأعراض أو المظاهر للجوهر الإلهي القائم بذاته بغير ابتداء.

يقول سبينوزا"وكل ما جرى بقوانين سرمدية في الجوهر الإلهي مستمدة من ضرورة وجوده على الوجوب، إذ ليس في الكون ممكن على الإطلاق. ولكن الأشياء محتومة الوجود

(1) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، ص١١١.

(2) باروخ سبينوزا: علم الأخلاق، ترجمة : جلال الدين سعيد، مراجعة: جورج كتورة ، ص٣١.

(3) المصدر السابق: ص٧١ . ٧٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والعمل على نحو تستلزمه ضرورة الطبيعة الإلهية، ولا سبيل في نشوء هذه الأشياء على أي نحو أو أي نظام يخالف ما وقع منه. ولهذا لزم أنها وجدت على أكمل الإنحاء والنظم إذ هي نشأت ضرورة من طبيعة على أتم كمال"[1].

يقول (كوتنجهام) موضحاً هذه الضرورة المنطقية في الكون عند سبينوزا: "لقد أنكر سبينوزا أن يشتمل الكون على أية حوادث عارضة (غير ضرورية) مهما كانت إذ ليس في الكون شيء عارض، ولكن كل الأشياء مشروطة بأن توجد وتعمل على نحو خاص بضرورة الطبيعة الإلهية، وهذا ينجم بالضرورة عن واحدية سبينوزا؛ لأن كل ما يوجد إنما هو مظهر للجوهر الواحد الذي هو الله. وبما أن ذلك الجوهر ذاتي العلة وحر الإرادة بالضرورة فإن كل صفاته يجب أن تنشأ من جوهره أو طبيعته. ومن ثم فكل الأشياء مشروطة بضرورة الطبيعة الإلهية لا لتوجد فقط بل كذلك لتوجد وتعمل بطريقة خاصة، وليس هناك شيء عارض"[2].

"إن "سبينوزا" يرى أن الإله حر أكمل الحرية، ولكن ذلك ليس لأنه يختار أو يتفاوض مع نفسه فيما يختار، وإنما لأن جميع أفعاله هي كوجوده من ذاته، وهذا الكون الذي هو مظهر الحياة الإلهية هو خاضع لنواميس تلك الحياة، وبالتالي هو محدد تحديداً قاسياً، لأن النواميس الإلهية ليست فوضوية ولا ضعيفة التنظيم، وفوق ذلك فإن قانون العقل يرى الضرورة ماثلة في كل شئ، وبعبارة أوضح: يرى أن كل ما يقع كان ضروري الوقوع وكان من المستحيل أن يتخلف، وأن الجهل هو وحده الذي يحملنا على الظن بأن ما يكون كان يمكن ألا يكون.

تتتابع هذه الضرورة الكونية العامة في سلسلتين من الظواهرالمتباينة، الأولى سلسلة الظواهر النفسية المنبثقة من الفكر، وهي المعقولات، والثانية سلسلة الظواهر المادية المنبجسة من الامتداد، وهي المحسات، وبين هاتين السلسلتين يوجد اتصال دقيق مضبوط ما دام أن أصليهما . وهما: الفكر والامتداد . ليسا إلا مظرين للذات الإلهية.

(1) العقاد: الله، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، فبراير ٢٠٠١م، ص١٣٢.

(2) جون كوتنجهام: العقلانية فلسفة متجددة، ص٦٨ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من هنا يتبين أن سبينوزا يقدم إلينا إلهاً بعيداً عن كل موازنة تَمُتُّ إلى النوع الإنساني بأقل صلة، وأجنبياً عن جميع أحاسيس البشرية ومشاعرها وهو المصدر الأوحد الذي عنه ينبثق كل شئ بطريقة منطقية لا تخلف فيها ولا استثناء، وهو فوق ذلك المنقذ الأوحد للنفوس والمنبع لجميع سعاداتها"[1].

"وبناء على ذلك كان الله عند سبينوزا كاملاً وشاملاً كل الشمول، لم يخلق العالم أو يصنعه لأنه هو العالم، ولأن فكرة الخلق في نظره هي تشبيه للقوى الإلهية بقوى الإنسان حين يُحدث شيئاً أو يكون علة له. فالطبيعة عنده ليست في حاجة إلى علة، لأن العلية لا تنطبق إلا على الأشياء الجزئية، ولكنها لا تنطبق على الجوهر، أو الطبيعة في مجموعها؛ حيث يعمل سبينوزا على تعويد الأذهان على قبول فكرة الطبيعة الموجودة منذ الأزل، غير الناتجة عن علة، فالجوهر علة ذاته. ويفرق سبينوزا بين "الطبيعة الطابعة" و "الطبيعة المطبوعة"؛ حيث يرى أن "الطبيعة الطابعة" هي ما يوجد في ذاته، وما يتصور بذاته، أي ما للجوهر من صفات تعبر عن الماهية الأزلية اللامتناهية، وبعبارة أخرى هي الله بقدر ما يُعد علة حرة. أما "الطبيعة المطبوعة" فهي كل ما يتلو من ضرورة طبيعة الله، أو أية صفة من صفات الله، بقدر ما تعد أشياء توجد في الله، ولا يمكن أن توجد أو تتصور من دون الله." [2]

ويخلص سبينوزا من هذا التحديد إلى تقسيم الطبيعة إلى "طبيعة طابعة" هي الإله أو صفاته (ما يوجد في ذاته ويتصور بذاته) و "طبيعة مطبوعة" هي الموجودات الجزئية وصفاتها، ويجعل نظام الطبيعة خاضعاً لمنطق صارم. فأفعال الله ليست تعسفية بل تتمّ وفق قوانين ضرورية.

"وإذا، فمذهب "سبينوزا" هذا هو مُنْتَهٍ إلى وحدة الوجود بصورة تبين تمثله بالألوهية إلى حد ينم عن أنه يعتقد أن الإله هو وحده الموجود رغم ما رماه به بعض معاصريه من تهمة الإلحاد"[3].

(1) د. محمد غلاب: المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة، ص١٢٣.

(2) فؤاد زكريا: سبينوزا، ص١١٩.

(3) د. محمد غلاب: المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة، ص ١٢٠ . بتصرف يسير.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونرى هنا بوضوح تأثر سبينوزا بأفكار جيوردانو برونو، فسبينوزا يوحد بين الله والعالم، ولا مجال عنده للثنائية الديكارتية على الإطلاق، لا بين الله والعالم أو بين النفس والجسد، فالعالم والله يظهر عنده كوحدة واحدة.

*** الجبرية الفردية:**

نستنتج من ذهاب (سبينوزا) إلى الجبرية الكونية، والضرورة المنطقية لنظام الكون؛ أنه لا مجال للحرية الإنسانية في مذهب (سبينوزا) بعد ذهابه للجبرية الكونية، كما أنه لا مجال أيضاً للثواب والعقاب.

"لأن طبيعة الإنسان تنبثق ـ كغيرها من أجزاء الكون العام ـ عن صفتي الفكر والامتداد، وهي تعتبر الحلقة الأولى من سلسلة الكائنات الطبيعية التي صدرت عنهما وهي مؤلفة من النفس التي هي نتيجة لصفة الفكر وممثلة لحيثيتها، ومن الجسم الذي هو نتيجة لصفة الامتداد وممثل لحيثيتها. وليس الإنسان عند سبينوزا هو الحلقة الوحيدة المستثناه المميزة بالعقل من السلسلة الطبيعية كما هي عند ديكارت، وإنما هو أعلى الحلقات فحسب.

وعنده أنه لا يوجد بين النفس والجسم تأثير متبادل، إذ إن طبيعتيهما تلفظان إمكان هذا التأثير، فالنفس تنمو في فكرها دون مساعدة الجسم، وهي تعبر عما يجري فيه، وكذلك هو ينمو في امتداده دون مساعدة الجسم، وهي تعبر عما يجري فيه، وكذلك هو ينمو في امتداده دون مساعدتها، وهو الوساطة بينها وبين العالم الخارجي، ولكن يوجد بينهما التجاوب الضروري الذي يوجد بين نتائج كل صفتين من صفات الذات الأوحد أو كل مظهرين من مظاهره.

ولما لم تكن حياة إلا كلظة من الحياة الإلهية، فمن الخارج عن حد العقل التحدث عن حرية الفرد، لأنه ليس له حياة مستقلة يمكن أن تضمن له الحرية وإنما هو لا يخرج عن كونه آلة مفكرة ولا تستطيع نفسه أن تدعي أن لها سلطاناً حاكماً بأمره على حركات الجسم وسكناته، ولا تجرؤعلى أن تعزو إلى نفسها سلطة تنظيم تصميماته ومصيره بإرادة حرة. وإذاً، فالخلاصة الضرورية لمذهب سبينوزا هي القول بانمحاء حرية الفرد الكاملة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومع ذلك فهو لا يجحد أن لدى الإنسان نوعاً من الحرية المقيدة تمكنه من السير تبعاً لقانون العقل، وهو لا يفعل كل شئ بلا حد، وإنما يفعل بعض الأشياء، وله دائرة اختصاص معينة كافية لتحقيق الوصف بالفضيلة والرذيلة، وتركيز المسئولية والجزاء. ولهذا كانت الأخلاق عنده تنحصر في تحقق المسئولية الناشئة من الحرية المقيدة الخاضعة للعقل الذي هو القابض فينا على زمام كل شئ. وإجمال الفضيلة عنده هو التحرر من ربقة الهوى والفرار منه إلى حرية العقل. ويمكن أن يلخص مذهبه الأخلاقي في هذه الكلمة وحدها وهي: "الفهم" ولكن الفهم الحقيقي، وهذا يذكرنا بمذهب "سقراط" المجمل في هذه العبارة: "العلم والفضيلة كالثلج والماء، حقيقتهما واحدة وصورتاهما مختلفتان"

كما أن إلحاحه على الخضوع لأمر العقل وادعاءه أنه هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق السعادة يذكراننا بأخلاق الرواقيين[1].

⟸ تقييم مذهب سبينوزا:

كيف يرى الفلاسفة والمفكرون في الشرق والغرب مذهب سبينوزا؟ وما هو تقييمهم له؟

يجدر بنا أن نذكر رأي برتراند رسل الذي يعتبر من كبار الفلاسفة الغربيين المعاصرين، فرأيه في سبينوزا وفي ميتافيزيقاه محل تقدير، حيث يرى برتراند رسل أنه: "من أجل تقييم "سبينوزا" كفيلسوف تقييماً نقدياً، فإننا ننظر إلى "ميتافيزيقا "سبينوزا" هي أفضل مثل لما يمكن أن ندعوه "الواحدية المنطقية" . وهي القائلة بأن العالم ككل جوهر واحد لا يسع جزء من أجزاءه أن يوجد وحده، والأساس الأولى لهذه النظرة هو الاعتقاد بأن لكل قضية موضوعاً واحداً ومحمولاً واحداً، ويفضي بنا إلى النتيجة القائلة بأن العلاقات والتعدد يلزم أن تكون وهمية. وقد ظن "سبينوزا" أن طبيعة العالم والحياة الإنسانية يمكن أن تستنبط استنباطاً منطقياً من بديهيات بينة بذاتها، فينبغي لنا أن نسلم بالأحداث تسليمنا بكون ٢ و٢ حاصلهما أربعة، ما دامت هذه وتلك ثمرة ضرورة منطقية. ومن المستحيل أن نتقبل

(١) د. محمد غلاب: المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة، ص١٢٤، ١٢٥. بتصرف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ميتافيزيقاه بأسرها فهي تجافي المنطق الحديث والمنهج العلمي، فالحقائق يجب أن تكتشف بالملاحظة لا بالاستدلال. فنحن حين نستنتج المستقبل بنجاح، نفعل ذلك بواسطة مبادئ ليست ضرورية منطقياً، وإنما توحي بها المعطيات التجريبية، وتصور الجوهر الذي يعتمد عليه "سبينوزا"، تصور لا يمكن في أيامنا أن يتقبله العلم ولا الفلسفة". [1]

ويرى العقاد . وهو أحد مفكري الشرق المسلمين . في تقييمه لسبينوزا: "أنه قد نفى في بعض رسائله أن يقول بوحدة الله والطبيعة، وفسر كلامه بأن الله "حاضر" في الطبيعة لا ينفصل عنها ولا تنفصل عنه. لأنه لا انفصال عن اللانهاية وهي الله. وعقدة الإشكال كلها . على ما رأينا هي أن سبينوزا لم يرد أن يفرق بين وجود الأبد ووجود المكان والزمان. فالمكان يأخذ من المكان، والزمان يلحق بما له حركة تبتدئ وتنتهي في أمد محدود. وليس للانهاية حيز يجوز عليه مكان ولا زمان. فلا تناقض بين كمال الله ووجود الكائنات التي تتحيز في فضاء محدود أو تجري إلى أمد محدود"[2].

فالفهم والتقييم للميتافيزيقا عند سبينوزا ليس واحداً، وليس محل اتفاق، فهناك من يراه من أصحاب وحدة الوجود المؤمنة، التي لا تؤمن إلا بوجود الله، كالدكتور غلاب، وهناك من يراه من أصحاب "الواحدية المنطقية"، بينما يرى العقاد، أن كلامه له تأويل آخر وهو أن الله حاضر في الطبيعة غير منفصل عنها ولا منفصلة عنه.

ولكني أتساءل: هل يمكن القول إن حديث سبينوزا عن "وحدة الوجود" قد يعطي إمكانية مُثلى للحديث عن نزعة صوفية لدية، مع التأكيد على إصرار سبينوزا نفسه على تقديم فلسفة عقلية بهذا الصدد؟

إننا نجد "ولتر ستيس" (١٨٨٦ . ١٩٦٧م) يتبين في فلسفة سبينوزا عنصراً دخيلاً هو العنصر الصوفي، فيرى تلك التصورات التي يقدمها لنا سبينوزا عن لا نهائية الله، والغبطة الروحية، والإدراك الحدسي لله، ولا حقيقة الزمان (فالله ليس خالقاً للعالم في لحظة معينة،

(١) برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث، الفلسفة الحديثة، ص١٣٢، ١٣٣.

(٢) العقاد: الله، ص١٣٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لأن مبادئ الامتداد محايثة في الله من حيث إنه أساسها الأزلي، والذي لا يحده زمان)، فكل هذه دلائل على وجود عنصر صوفي في فلسفته" [1].

ولكني أرى أن سبينوزا بعيد عن الصوفية، لأن وحدة الوجود عند القائلين بها من الصوفية مثل ابن عربي والجيلي والنابلسي هي تجربة روحية ذوقية، يفنى فيها الصوفي عن ذاته في حال الفناء فلا يرى إلا الله فيترجم لسانه بعبارات الفناء وأنه لا موجود إلا الله فهي حالة وجدانية شعورية وليست وحدة حقيقية، أما ما يؤسس له سبينوزا فهي وحدة وجود فلسفية ، تجعل الله هو والعالم سواء بسواء، فالله هو العالم، وهذا رأي باطل، فكيف يكون المخلوق خالقاً.

ولهذا السبب قال المستشرق "رينييه جينو" الذي أسلم وصار اسمه العارف بالله "عبد الواحد يحيى" بقبول وحدة الوجود عند الصوفية وعدم قبولها عند سبينوزا، حيث قال: "فالمسلِم الذي يقبل . بشكل طبيعي . تعبير (وحدة الوجود Panthiesme Islamique) حين يرد في سياق النظرية الميتافيزيقية (الصوفية) عن الذات العليّة، ولكنه بمجرد أن يعي ماذا تعنيه هذه الكلمة عند (سبينوزا) مثلاً؛ فإنه سوف يرفض برعب هذه الفكرة".[2]

(1) ولتر ستيس: الزمان والأزل . مقال في فلسفة الدين ، ترجمة: زكريا إبراهيم، مراجعة أحمد فؤاد الأهواني، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٣م، ص٣٣٩.

(2) رينيه جينو (العارف بالله الشيخ عبد الواحد يحيى): مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية (والهندوسية بوجه خاص)، ترجمة: عمر الفاروق عمر، مرجعة وتقديم: سعد الموجي، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٣م، ص٩٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الثالث

نقد سبينوزا للتوراة

لقد اتخذ سبينوزا في نقده للتوراة منهجين رئيسيين: **الأول**: النقد التاريخي للتوراة، **والثاني**: المنهج التفسيري في دراسة التوراة، وسوف أوضح هذين الطريقين عند سبينوزا .

أولاً: النقد التاريخي للتوراة عند سبينوزا:

استخدم سبينوزا في نقده للتوراة المنهج التاريخي، فرفض النظرة المحافظة التي تثبت المصدر التاريخي للتوراة، لأن مهمة النقد في هذه الحالة تكون تبرير محتوى الكتاب المقدس مهما كان فيه من أساطير دخيلة من العقائد للمجتمعات المجاورة. ويحلل سبينوزا أسفار التوراة سفراً سفراً، مبيناً نصيب كل منها من الصحة التاريخية. فالأسفار الخمسة لم يكتبها موسى بل كتبها إنسان آخر بعد موسى بمدة طويلة.

وبعد أن يستطرد سبينوزا في استعراض عشرات الأدلة على صحة رأيه يستنتج أن أسفار الكتاب المقدس لم يكتبها مؤلف واحد في عصر واحد لجمهور واحد، بل كتبها مؤلفون كثيرون في عصور متعاقبة لجماهير مختلفة في المزاج والتكوين وقد امتد التدوين إلى ألفي عام وربما أكثر من ذلك[1].

ويتضمن البحث التاريخي الذي استخدمه سبينوزا في نقد وتقويم التوراة، خطوات ثلاث، هي:

أ- معرفة خصائص وطبيعة اللغة التي دُوِّنت بها أسفار الكتاب المقدس، والتي تحدث بها مؤلفوها، وبذلك يمكننا معرفة معاني النصوص حسب الاستعمال العرفي لها. ولما كانت اللغة العبرية لغة الكلام والتدوين، وجب علينا إذن معرفة اللغة العبرية التي كتبت فيها التوراة.

ب- جمع النصوص الدينية في موضوعات رئيسية، حتى يمكن استخدام النصوص التي تتعلق بنفس الموضوع مرة واحدة. يجب إذن تحويل الكتاب المقدس إلى معجم مفهرس، حتى

(1) أندريه كريسون: سبينوزا، ترجمة: تيسير الشيخ الأرض، دار الأنوار، مكتبة العباسية . دمشق، ١٩٦٦، ص ١١٦ _ ١١٨

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يسهل استعماله حسب الموضوع. كما يمكن تبويب الآيات حسب درجة وضوحها أو غموضها، فتوضع الآيات الواضحة معاً والمتشابهة معاً. ويعني الوضوح هنا فهم النص حسب السياق، وليس حسب العقل، لأن مهمة التفسير فهم النص، لا معرفة الحقيقة.

ت- معرفة الظروف والملابسات التي كتبت فيها الأسفار: أي معرفة حياة مؤلف السفر، وتقاليده، وأخلاقه، والغاية من السفر، ومناسبته وعصره ولغته، ثم مصير السفر نفسه، جمعه ونقله ونسخه والاختلافات في النسخ، حتى يمكن التفرقة بين آيات التشريع وآيات الأخلاق. كل هذا من أجل معرفة مدى قدرتنا على
الوثوق بهذا السفر أو ذاك[1].

وبعد الانتهاء من البحث التاريخي نبدأ بدراسة أكثر الأشياء عمومية ثم الانتقال إلى الموضوعات الأقل شمولاً، فإذا وقع تشابه أو غموض في الآية رجعنا إلى المناسبة والمكان الذين كُتبت فيه هذه النصوص، وأخيراً نلجأ إلى التفسير اللغوي؛ لأن الكلمات محفوظة في التراث اللغوي ولا يمكن تبديل معانيها كما يحدث في تبديل النصوص.

& لكن منهج التفسير اللغوي تقابله صعوبات ومشاكل ثلاث:

الأولى: أن علماء اللغة لم يتركوا لنا معاجم دقيقة نعرف منها مبادئ اللغة العبرية، فليست لدينا معاجم أو كتب في القواعد أو في الخطابة، فقد فقدت الأمة العبرية كل شئ ولم يبق إلا بعض المنوعات الأدبية وضاعت أسماء النباتات والحيوانات والطيور والأسماك، وهنا أسماء وأفعال كثيرة في التوراة مجهولة أو مشكوك فيها، كما لا نعلم أساليب اللغة وطرق بيانها ولا نستطيع معرفة معاني النصوص طبقاً لاستعمال الكلمات، هذا بالإضافة إلى طبيعة اللغة نفسها وغموضها لأسباب يعرفها علماء اللغة.

(1) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: د. حسن حنفي، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م، الناشر: دار التنوير بيروت، ٣٧ - ٤٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والثانية: أننا نجهل الظروف والملابسات لكل سفر، فلا نعلم مؤلفي الأسفار وموضوعاتها ورواتها ومن تناقلوها، وعدد نسخها والاختلافات بينها ومصادرها خاصة إذا كانت تروي أشياء غامضة لا يمكن تصديقها..

والثالثة: أننا لا نملك أسفار الكتاب بلغتها الأصلية التي كُتبت بها لأول مرة، فقد كُتب إنجيل متى وكذلك رسالة بولس إلى العبرانيين باللغة العبرية وقد ضاع النص الأصلي لكليهما، وكذلك لا نعلم بأي لغة كتب سفر أيوب إذ يؤكد ابن عزرا أنه كُتِب بلغة أخرى ثم تُرجم إلى العبرية(١).

وبعدما قدم سبينوزا تلك الصعوبات التي تقف أمام التفسير اللغوي للكتاب المقدس والتي يعتمد عليها منهج النقد التاريخي، يرى أنه لا تفسير له إلا عن طريق النور الفطري الذي يقتضي استنباط الأشياء الغامضة من الأشياء الواضحة، فكل ما يخالف العقل والفطرة يجب حذفه؛ لأنه زيادة من الراوي لإثارة النفوس وتحريك الخيال.

فسبينوزا يطبق المنهج النقدي التاريخي على الكتاب المقدس، ويتعامل معه على أنه وثيقة تاريخية سُجل فيها الوحي الإلهي، ومن ثم فهو يعارض النظرة التقليدية التي تحافظ عليه من النقد وتؤمن بألوهية الكتاب قبل تطبيق قواعد المنهج التاريخي.

ويدعو سبينوزا، في سبيل القضاء على الفكر الخرافي وتجنب الوقوع في شباك اللاهوتيين، إلى إعمال العقل والتحلي بالحس النقدي، فيجعل سبينوزا من العقل مرادفاً للفكر السليم الحر، حيث تكون له وظيفة نقدية وجدلية تتمثل في محاربة الخرافات والأحكام المسبقة، ولا سيما في قراءة الكتاب المقدس، حيث ينبغي تمييز كلام الله الحق مما أُلحق به من تحريف على يد عدد من الماكرين الجشعين صدّقهم عدد من الأغبياء المتقاعسين.

ويعتقد سبينوزا أننا إذا طبقنا قواعد المنهج التاريخي على الكتاب المقدس "نجد أن موسى ليس مؤلفاً أسفار التوراة الخمسة المعروفة باسمه على الرغم من تأكيد الفريسيين لذلك حتى أن ابن عزراوهو العالم الناقد الحر لم يجرؤ على الجهر بذلك، وقد ألفه إنسان آخر عاش بعد

(١) المصدر السابق: ص٢٤٣ . ٢٤٩ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

موسى بمدة طويلة، ويذكر ابن عزرا الأسباب التي دعته إلى الشك في نسبة الأسفار الخمسة إلى موسى، وأهمها:

١. لم يكتب موسى مقدمة سفر التثنية لأنه لم يعبر نهر الأردن.
٢. كان سفر موسى مكتوباً على حائط المعبد الذي لم يتجاوز اثنى عشر حجراً أي أنه كان أصغر بكثير مما لدينا الآن.
٣. قيل في سفر التثنية: "وقد كتب موسى التوراة" ولا يمكن أن يقول موسى ذلك إن كان هو مؤلفها.
٤. في سفر التكوين يعلق الكاتب قائلاً: "وكان الكنعانيون في هذه الأرض" وهذا يدل على أن الوضع الآن قد تغير عما كانت عليه وقت تدوين الكتاب أي بعد موت موسى وطرد الكنعانيين وبذلك لا يكون الراوي هو موسى.

ويزيد سبينوزا على هذه الملاحظات ملاحظات أخرى:

١. كتابة الأسفار بضمير الغائب لا بضمير المتكلم.
٢. مقارنة موت موسى ولحده بموت الأنبياء التالين له.
٣. تسمية بعض الأماكن بأسماء مختلفة عما كانت أيام موسى.
٤. استمرار الرواية في الزمان بعد موت موسى[١].

وفي ضوء هذا المنهج الصارم الذي وضعه سبينوزا وحدد فيه وظيفة العقل النقدية في التعامل مع الكتاب المقدس، أخذ يبحث في مدى الانسجام بين روايات الكتاب المقدس، فحصل على تناقضات كثيرة في روايات الكتاب المقدس، منها للذكر ليس للحصر: أن كل ما رُوي في الإصحاح (١٣) يتضارب مع ما تقدم عليه؛ (إذ يروي لنا عند نهاية الإصحاح (٨) أن العبرانيين هزموا الفلسطينيين هزيمة بلغت من الشدّة حدّاً لم يعودوا معه يجرؤون على عبور إسرائيل طوال حياة صموئيل، وفي الإصحاح (١٣) غزا الفلسطينيون العبرانيين (أيام

(١) د. حسن حنفي: في الفكر الغربي المعاصر: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص٦٨، ٦٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صموئيل)، وجلبوا لهم من البؤس الشديد والفقر المدقع ما جعلهم يظلّون دون أسلحة، ودون أية وسيلة تصنعها. وإنما لمحاولة مضنية حقاً أن يوفق الإنسان بين جميع هذه القصص الموجودة في سفر صموئيل الأول، بحيث تبدو وكأن مؤرخاً واحداً هو الذي كتبها ورتّبها) [1].

ويذكر سبينوزا في فصول مختلفة من رسالته (في اللاهوت والسياسة) العديد من التناقضات خاصة في الفصل التاسع من هذا الرسالة، والتي لا يتسع المجال لسردها، منددا بالمحاولات اليائسة البائسة التي قام بها بعض المتحذلقين لتبريرها بعرضهم لشروح متحذلقة وغير منطقية ولا عقلانية مفسدة للمعنى وللغة؛ بينما كان من الأجدى . في تصور سبينوزا . معاينة مواطن التناقض والاختلاف، ثم الإقرار بأن الروايات المتضاربة إنما تعود إلى مؤلفين مختلفين، وجُمّعت من قَبل أن يقع فحصها وترتيبها على نحو ما ينبغي، فيقول: "فيجب إذاً أن نسلّم بأن هذه الروايات مجموعة من القصص مستمدة من مؤلفين عديدين، ثم جُمعت قبل ترتيبها وفحصها" [2].

وهنا نرى سبينوزا بهذا النقد سابقاً للآراء الحديثة في نقد الكتاب المقدس، فكان حقاً سابقاً لعصره، مؤسساً لنقد الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) في الغرب.

وهذا يؤكده برتراند رسل، بقوله: "وفي نقد الإنجيل سبق "سبينوزا" الآراء الحديثة في بعض جوانبها، وبخاصة في تعيين تواريخ للأجزاء المختلفة في العهد القديم، أحدث كثيراً من التواريخ التي تحددت بالعرف. وهو يحاول طوال الكتاب أن يبين أن الكتب المقدسة يمكن تأويلها بحيث تنسجم مع لاهوت ليبرالي"[3]

نستطيع بذلك أن نؤكد أن سبينوزا كان واحداً من أهم فلاسفة الغرب الذين قاموا بنقد الكتاب المقدس، بل من أوائل من من قاموا بذلك، وكان هذا النقد اللاذع الذي وجهه إلى الكتاب المقدس سبباً في طرده من الكنيس اليهودي، وحرمانه والحكم عليه بالإلحاد.

(1) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: د. حسن حنفي، ص٢٨٦ .

(2) المصدر السابق: ص٢٨٧

(3) برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث "الفلسفة الحديثة"، ترجمة: د.محمد فتحي الشنيطي، ص١٢١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثانياً: المنهج التفسيري في دراسة التوراة عند سبينوزا:

استخدم سبينوزا بالإضافة للمنهج التاريخي في دراسة التوراة المنهج التفسيري، فإذا كان الشعور الديني ذا أبعاد ثلاثة: **الشعور التاريخي**، وضبطه عبر التاريخ، **والشعور الفكري**، ومهمته فهم الوحي . بعد التأكد من صحته بتفسيره وتحويله إلى أسس نظرية للسلوك، وأخيراً **الشعور العملي**، ومهمته تحويل الوعي إلى أنماط للسلوك وإلى مناهج عملية في الحياة حتى يصبح الوعي نظاماً للعالم. ويتم تحقيق الوحدة بين الفكر والواقع، أو بين الروح والطبيعة، فإن سبينوزا لا يخرج عن هذا التقسيم فيدرس النبوة أولاً كشعور تاريخي، ثم يدرس مناهج التفسير كشعور فكري، ثم ينتهي بعد ذلك إلى السلوك والحياة العملية في دراسته للصلة بين الدين والدولة، أو بين نظام الحكم الأمثل في الشعور العلمي.

ومع ذلك فالتفسير عند سبينوزا هو المسألة العامة التي تضم كثيراً من المسائل النقدية والعلمية على السواء، والتفسير ليس حكراً على فرد معين أو على سلطة بعينها، بل لكل فرد الحرية المطلقة في أن يفسر ما يشاء، وأن يؤمن ويتصور العقائد كما يريد، وأن يفسر الكتاب على مستوى فهم العامة، وطبقاً لآراء الأنبياء، واعتقادات الرواة.

ويرفض سبينوزا سلطة الكنيسة في التفسير، وما تدعيه من حق في تفسير الكتاب المقدس، فالله لا يحرم على الفرد حرية البحث ولا يمنعه حقه في التفكير والفهم والتفسير. وبناء على ذلك لا يحق لنا اتهام مؤسسوا الفرق الدينية بالكفر، إذا هم كيفوا الكتاب حسب اعتقاداتهم الخاصة، بما أنه قد تكيف من قبل حسب عقلية الأنبياء، وحسب التكوين النفسي للجماهير في عصره، ولكن يعاب عليهم منعهم الآخرين حرية البحث والتفكير، واعتبارهم أعداء لله وللبشر لأنهم يختلفون معهم في الآراء والمعتقدات.

"فسبينوزا" يؤمن بحرية كل فرد المطلقة في أن يؤمن بما يشاء، وأن يتصور العقائد كما يريد، وأن يفسر النصوص على مستوى فهمه هو، وبذلك يرفض سلطة الكنيسة وما تدعيه من حق ، في تفسير الكتاب المقدس ويقترب من لوثر، فالله لا يحرم الفرد حقه في حرية البحث والتفكير والفهم والتفسير ....، ويرى أن تمسك الكنيسة بهذا الحق المطلق هو منع لحرية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التفسير وتأييد البدع بالسلطة الإلهية وعدم إخلاص من الكنيسة تجاه رعاياها، فلو أنهم كانوا مخلصين حقاً في تفسيرهم لكانوا دعاة خير ولما آمنوا بالخرافة، واحتقروا العقل، ورأوا في الكتاب الأسرار وتركوا النافع وأبقوا على التناقض والمعتقدات المنافية للعقل الصادرة عن انفعالات النفس"[1].

إن هذا المنهج الذي وضعه سبينوزا في تفسير الكتاب المقدس قد سبق به كل ناقد وسبق به عصره، فقد ظل موضع الرمي بالإلحاد حتى كان القرن التاسع عشر الذي اكتشف العلماء مزايا عديدة في كتابه اللاهوت والسياسة.

"فهناك مزايا لم يكن يمكن التنبه إليها في عصر سبينوزا على الإطلاق؛..، وتنافس الكتاب المعاصرون في التحدث عن سبينوزا بوصفه "رائداً" للبحث التاريخي للعقائد، وعصامياً فريداً في هذا الميدان. وهكذا قال "فيل": "إن فضل هذا الكتاب في نظر أعمق النقاد المعاصرين، يرجع إلى أنه وضع نظاماً حقيقياً لعلم التفسير، وحدد الهدف الحقيقي الواجب بلوغه، وأعني به قبل كل شئ، فهم النصوص بذاتها دون أية فكرة سابقة، وعلى نحو موضوعي وتاريخي تماماً، ووصل إلى بعض النتائج التي لم تكشفها منذ ذلك الحين، إلا جهود البحاثة المتعمقين الذين أعلنوها على الملأ"، ويقول برنشفك: "إن المعقولية الوضعية في "البحث اللاهوتي السياسي"، قد استبقت أفضل نتائج النقد المعاصر"، كما يقول في موضع آخر: "مثلما وضع ديكارت أسس التحليل الخالص والفيزياء الرياضية، فكذلك يعد سبينوزا واضع المنهج السيكولوجي والاجتماعي الذي هو أساس علم التفسير الحديث"[2].

ولذا حكم الدكتور فؤاد زكريا على هذا المنهج التفسيري عند سبينوزا بأنه استبق أقوى الاتجاهات تحرراً في العصر الحديث، فيقول: "الأمر الذي لا شك فيه، أن هذا المنهج التفسيري الذي اتبعه سبينوزا في هذا الكتاب، ووقوفه من النصوص الدينية موقف الباحث العلمي الموضوعي الذي لا يحكم إلا على أساس ما يمليه عقبه . لا ما تمليه مشاعره أو

(1) د. حسن حنفي: في الفكر الغربي المعاصر، ص٦٥، ٦٦.

(2) د. فؤاد زكريا: اسبينوزا، ص١٨١، ١٨٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عواطفه . كان مرتبطاً أوثق الارتباط بدعوته إلى حرية التفكير والبحث، التي جعلها هدفاً لهذا الكتاب، ونستطيع أن نقول إنه في هذه الدعوة الأخيرة أيضاً . لا في دعوته إلى التفسير العلمي للنصوص الدينية فحسب . قد استبق أشد الاتجاهات تحرراً في العصر الحديث، وأنه يُعد مبشراً بأفكار لم تبدأ في التبلور إلا منذ عهد الثور الفرنسية على الأقل"[1].

نخلص مما سبق: أن نقد سبينوزا للتوراة سواء بما استخدمه من النقد التاريخي أو المنهج التفسيري يعتبر رائداً وفريداً في عصره سبق بهذا النقد على كافة العصور التي تليه.

(1) المرجع السابق، ص١٨٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الرابع
النبوة عند سبينوزا

بدأ سبينوزا بدراسة النبوة لأنها الموضوع الذي يتناوله الباحث عندما يريد دراسة الوحي، إذ يتم كشف الوحي من خلال النبوة، والنبوة في الغالب وحي مكتوب، فهي مصدر النص قبل التدوين، وتشتمل النبوة جانبين: الأول صلتها بمصدر الوحي، أي النبوة على المستوى الرأسي، كما تحددها صلة النبي بالله، والثاني صلتها بالرواة وانتقالها من رواية إلى رواية، حتى يتم التدوين ثم انتقال المصاحف من يد إلى يد حتى يتم التقنين، أي النبوة على المستوى الأفقي كما يحدده وضعها وانتقالها في التاريخ. الجانب الأول لا يهتم به سبينوزا كثيراً؛ لأنه في الحقيقة موضوع للفلسفة الإلهية التي تحدد معنى النبوة تحديداً ضيقاً، وهو مبحث ميتافيزيقي، لا يتعدى الافتراض بينما يهتم سبينوزا كثيراً بالجانب الثاني الذي يدرس الأسفار وانتقالها عبر التاريخ، وهو مبحث تاريخي علمي.

وقد أكد سبينوزا عدم صحة تدخل الله في قوانين الطبيعة وبالتالي عدم صحة اتصال الله بأي إنسان بصورة مباشرة، لأن قدرة الله هي قدرة الطبيعة وصفات الله هي قوانين الطبيعة، ولهذا فلا شئ يوجد أو يتواجد أو يتصل بالطبيعة من خارجها. وبعد أن يدلي سبينوزا بكثير من الأدلة على صحة رأيه هذا يرى أن الله لا يرسل وحياً بالمعنى واللفظ، ولكنه يعطي المعنى فقط، يقذفه في قلب النبي الذي يقوم بصياغته في ألفاظ من عنده. فلا فرق بين النبي والفيلسوف عند سبينوزا.

وقد طبق سبينوزا منهجه النقدي أيضاً في تناوله للنبوة؛ فتساءل منذ البداية عن: "ما النبوة؟ وبأي طريقة كشف الله عن نفسه للأنبياء؟ وما السبب في اختيار الله للأنبياء؟ هل اختارهم لتأملاتهم السامية في الطبيعة أم لتقواهم؟ أم أنه ليس هناك معيار محدد يهب الله به النبوة لمن يريد؟ "[1].

([1]) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: د. حسن حنفي ، ص١١٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد التزم سبينوزا منهجه النقدي لتقديم إجاباته على هذه الأسئلة المحورية والتي تكشف عن حقيقة نظريته في الألوهية، وبذلك يعد سبينوزا من أوائل واضعي هذا المنهج الذي يرمي إلى مقارنة النصوص المقدسة بعضها بالبعض الآخر، ومعرفة ظروف تدوينها واللغة التي كتبت بها. وبذلك يقوم منهج سبينوزا على الفحص التاريخي اللغوي لا على الفحص الفلسفي أو العلمي، ولا يهتم سبينوزا نفسه بإثبات النبوة أو بنفيها، ولكنه يهتم بتحقيق النصوص وصحتها، أي أنه يدرس النبوة في التاريخ دون تعدي ذلك إلى دراسة صلة النبي بمصدر نبوته.

والسبب في دراسة سبينوزا للنبوة في التاريخ دون تعدي ذلك إلى دراسة صلة النبي بالله هو طريقة تعامله مع النبوة ذاتها بأنها واقعة خالصة.

ويعرّف سبينوزا النبوة أو الوحي على أنها: "المعرفة اليقينية التي يوحي الله بها إلى البشر عن شئ ما"[1]. والنبي هو "مفسر ما يوحي الله به لأمثاله من الناس الذين لا يقدرون على الحصول على معرفة يقينية به، ولا يملكون إلا إدراكه بالإيمان وحده"[2].

ويقرر سبينوزا أن المعرفة التي مصدرها النبي تتطابق تماماً مع المعرفة الفطرية؛ لأن ما تعرفه بالنور الفطري يعتمد على معرفة الله وحده وعلى أوامره الأزلية، ولما كانت هذه المعرفة مشتركة بين الناس؛ لأنها تعتمد على مبادئ يعتنقها الجميع، فإنها لا تمثل أية أهمية للعامي المولع بالنوادر والعجائب، ويحتقر كل هبة فطرية، ويعتقد أنه يستبعدها حين يتحدث عن المعرفة النبوية، ومع ذلك فإن للمعرفة الفطرية الحق نفسه الذي يكون لأية معرفة أخرى في أن تسمى معرفة إلهية؛ لأنها أثر من آثار الطبيعة الإلهية، ولا تختلف المعرفة الإلهية عن المعرفة الفطرية عند سبينوزا إلا أن الأولى تتعدى حدود الثانية، ولا يمكن تفسير الأولى بقوانين الطبيعة الإنسانية من حيث هي كذلك.

(1) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: د. حسن حنفي ،ص١١٩.

(2) المصدر السابق، ص١١٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مع أن المعرفة الفطرية لا تقل أبداً من حيث يقينها الذي تتميز به ولا من حيث مصدرها التي تصدر عنه (وهو الله)، إلا إذا شئنا أن نتخيل أن للأنبياء بدناً إنسانياً وليست لهم روح إنسانية، بحيث تختلف إحساساتهم ومشاعرهم عن إحساستنا ومشاعرنا[1].

ومع أن المعرفة الفطرية معرفة إلهية بمعنى الكلمة عند سبينوزا فإننا لا يمكن أن نسمي من يقومون بنشرها أنبياء. فالنبوة عند سبينوزا هي معرفة يقينية يوحيها الله إلى الإنسان على لسان النبي فيعبر عنها للبشر، فمهمة الرسول صياغة الوحي بأسلوبه وعلى طريقته وباستدلالاته حسب فهم العامة، وهكذ يسقط سبينوزا القداسة عن النبوة بحجة واهية، وهي حجة الحفاظ على الدين نفياً بعيداً عن الخرافات، فيقول: "أخشى أن يتم التطرف في التقديس إلى تحويل الدين إلى خرافة"[2].

أما ما هو سبب النبوة أو ما هي قوانين الطبيعة التي تحدث النبوة طبقاً لها فهو ما لا يبحث فيه سبينوزا، وإن كان يقول إني أعترف بأني لا أعلمها، ولا يمكنني القول بأنها حدثت بقدرة الله؛ لأن مثل هذا القول لا يعني شيئاً، لأنه يعني إيضاح صيغة شئ فردي بلفظ متعال، إن كل شئ يصدر بالفعل عن الله[3].

ويقصد سبينوزا بذلك أنه يكون من غير المنطقي أن نفسر شيئاً فردياً بشئ عام أو تفسير الواقعي بالمجرد، فكل شئ يصدر بالفعل عن الله.

كما أنه يرفض أن يكون كعامة اليهود الذين كانوا كلما غمض عليهم شئ أرجعوه إلى قدرة الله. ولكنه يبحث في أسباب النبوة من جهة الإنسان، ويرى أن السبب الأول في وجود الوحي هو طبيعة الروح الإنسانية وقدرتها على تكوين بعض الأفكار التي تفسر بها طبيعة الأشياء وتدل على الحياة الحقة.

(1) نفس المصدر، ص١٢٠. بتصرف

(2) نفسه ، ص٣٢٨.

(3) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: د. حسن حنفي ، ص١٣٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويرى حسن حنفي: " أن سبينوزا يريد دراسة الوحي في التاريخ ابتداءً من إعلانه على لسان النبي للآخرين حتى مرحلة التدوين دون أن يبحث صلة النبي بالله، أو بالطبيعة، أي أنه يدرس الوحي دراسة أفقية لا دراسة رأسية"(١).

كما يرفض سبينوزا كل نظريات الكنيسة حول طبيعة المسيح وشخصه، وأنكر ألوهية المسيح(٢) لأنه ببساطة يرى استحالة أن يصبح الله إنسانياً؛ إذ إن تصور الإنسان الإله يثير حفيظة كل من لديه فطرة عقلية سليمة. فالمسيح لدى سبينوزا ما هو إلا حكيم فريد عرف الحب العقلي وأراد تعليم البشر عن طريق الأمثال. إذن لا ينظر سبينوزا إلى المسيح إلا من الناحية المعرفية كوسيلة مباشرة للاتصال بالله وهو ما يستطيعه الفيلسوف أيضاً عن طريق الحب.

إن النبي . على العموم . عند سبينوزا "يدرك الوحي بخياله لا بعقله، ولذلك لم يعبر الأنبياء عن أفكارهم بالقضايا الواضحة، بل بالرموز والأمثلة والتشبيهات الحسية، وهو ما يتفق مع طبيعة الخيال، والخيال بطبيعته غامض متقلب، لذلط ظهرت النبوة عند بعض الناس غامضة متغيرة، فلم يكن الأنبياء . عند سبينوزا . أكمل الناس عقلاً، بل أخصبهم خيالاً؛ ولذلك فإن الكتاب المقدس لا يحتوي إذن على معرفة عقلية وطبيعية بل على خيال خصب. ويختلف الأنبياء فيما بينهم في قدرتهم على التخيل وفي المزاج، وفي الآراء والمعتقدات، فيتكيف الوحي حسب عقليتهم وقدراتهم العقلية ومستوى فهم العامة، ولم يقل الأنبياء شيئاً إلا ما اتفق مع المعتقدات الشائعة بل إنهم جهلوا الأمور النظرية الخالصة التي لا تتعلق بالعدل والإحسان"(٣).

(١) د.حسن حنفي: في الفكر الغربي المعاصر، ص٥٨.

(٢) رغم تنبيه سبينوزا بأنه لم يتحدث مطلقاً عن نظرة بعض الكنائس إلى المسيح، لا لأنه ينكر ما تثبته، ولكن لأنه لا يفهمه. يقول سبينوزا: "ويجب عليّ هنا أن أنبه القارئ إلى أنني لن أتحدث مطلقاً عن نظرة بعض الكنائس إلى المسيح، لا لأني أنكر ما تثبته، بل لأني لا أفهمها، وأعترف بذلك عن صدق" (سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص١٢٩).

(٣) حسن حنفي: في الفكر الغربي المعاصر، ص٥٩، ٦٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإذا كان البعض من فلاسفة الإسلام أمثال الفارابي وابن سينا قد أرجعا النبوة إلى الخيال، إلا أنهما قد فسرا مخيلة النبي على أنها متصلة بالعقل الفعال الذي يفيض عليها بالمعقولات، ثم يفهم خيال النبي هذه المعقولات بالصورة الرمزية المجازية التي تظهر في النص الديني، فلا يصح أن نشابه بينهم وبين سبينوزا؛ لأن هذا الأخير أرجع ظاهرة الوحي إلى مخيلة النبي وحدها دون ربطها بأي قوة عليا. فمعرفة النبي هي نفس المعرفة الفطرية المشتركة؛ ويذهب سبينوزا إلى أن اليهود قد أطلقوا على خيال الأنبياء "فكر الله وروحه"؛ لأنهم لم يكونوا يعرفون أسباب المعرفة النبوية، وأنها هي المعرفة المشتركة بين كل الناس"[1].

وإننا نأخذ على سبينوزا أنه بذلك أسقط عن الأنبياء مسألة الاصطفاء والاجتباء من قبل الله عزوجل لهم، وجعل معارفهم كالمعارف الفطرية عند البشر، هذا فضلاً عن تشريف الله تعالى بالعصمة من الخطأ، والتأييد الإلهي لهم من خلال تزكية أنفسمه وصفائها مما يختلج به نفوس البشر من نقص أخلاقي.

⟸ وخلاصة ما سبق:

أن سبينوزا لم يكن يؤمن بألوهية المسيح، "كما أنه لم يؤمن بالتثليث النصراني، كما أنه رفض كثيراً من تحريفات اليهود للتوراة، واعتبر التوراة الحالية تأليفاً إنسانياً وليست وحياً، ولهذا اتهم بالخروج على العقيدة اليهودية وحكم عليه بالطرد، فكان يعاني من النفي المزدوج؛ النفي من قبل المسيحيين الذين يرونه يهودياً، والنفي أو الطرد من قبل اليهود باتهامهم له بالهرطقة، والأمر الثابت تاريخياً أن سبب طرده والنفي لمزدوج الذي تعرض له أنه أول من دشن النقد الباطني لنصوص العهد القديم، وانتهى إلى رفض معظم التوراة والعهد القديم بحجة أنها لا تصمد أمام المنهج الذي قام بتوظيفه في نقد نصوصهما، كما أنه رفض ادعاءات (الإنجيل) في المسيح، وصرح سبينوزا بأن عيسى لا يعدو أن يكون إنساناً كسائر الناس"[2]

---

(1) أشرف منصور: العقل والوحي . مبدأ التأويل بين ابن رشد وموسى بن ميمون وسبينوزا، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م، ص٢٦٥.

(2) موسوعة الفلسفة، ج١، ص١٤٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الخامس

نفي القدسية الأبدية لبني إسرائيل

رغم اعتراف سبينوزا بالنبوة، وبأنها: تلقي للوحي من الله عبر الخيال إلا أنه يرفض أن تكون قاصرة على أنبياء اليهود وشعب الله المختار، لأنه يرى "أن الدين الشامل؛ أي القانون الإلهي الذي أوحي به إلى الجنس كله بوساطة الأنبياء والحواريين لا يوجد فيه صراحة شيئاً يخالف العقل أو يناقضة. إذ إن كل ما في الأمر أن هذه التعاليم قد عرضت بأسلوب شاعري واستندت إلى أقوى الحجج على حض عامة الناس على طاعة الله"(١)

ويرى سبينوزا أنه لا قدسية أبدية لشعب إسرائيل، بل كانت قدسية مؤقتة، نظراً لأنهم كانوا يتمتعون ببناء اجتماعي قائم حيث ظل الوحي مستمراً في بني إسرائيل حتى اكتملت النبوة في المسيح. وينفي سبينوزا أية ميزة معينة يتميز بها شعب إسرائيل على باقي شعوب العالم، وينفي أيضاً أي عقد قام أو ميثاق تم بين الله وبينهم يفضلهم فيه ويصطفيهم على باقي البشر وإلى الأبد.

ومن خلال أخلاقه العلمية وفلسفته الإنسانية يناقش سبينوزا بفلسفته العقلية ومنهجه العقلاني هذه القضية فيخرجها من إطارها اللاهوتي إلى حيز "فلسفة الدين" على النحو التالي: "إذا كان اليهود يعتقدون بأن النبوة خاصة بهم ، وأن الله عقد معهم ميثاقاً أبدياً، وجعلهم شعبه المختار، وأن الله اصطفاهم على العالمين، وفضلهم على غيرهم من الأمم، فإن هذا الأمر لا يستدعي الفخر ولا يهب السعادة الحقة. فلا يمكن أن تكون السعادة الحقة في حصول بعض الناس على المغانم وحرمان الآخرين منها، كما لا يكون الناس أكثر سعادة إذا هم حصلوا على مغانم أكثر من غيرهم، والذي يفرح بهذه السعادة يكون فرحه فرحاً صبيانياً، وناشئاً على الحقد والحسد. السعادة هي الحكمة ومعرفة الحق، لا أن يكون الإنسان أحكم من الآخرين أو أن يُخرج الآخرين من الحكمة فذلك لن يزيد من سعادته

(١) سبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: د. حسن حنفي ، ص١١٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شيئاً، ومن يفرح لسعادته وشقاء الآخرين يكون حسوداً شريراً، لا يعرف السعادة الحقيقية وطمأنينة النفس. لذلك عندما يخبرنا الكتاب المقدس بما فضل الله به العبرانيين، فليس معنى ذلك أنهم حصلوا على السعادة الحقة وحدهم دون غيرهم بل فقط ليحثهم على طاعة الشريعة وما كانت الشريعة أقل عدالة لو أنها وضعت للناس جميعاً وما كانت سعادة بني إسرائيل أقل لو أن الله دعا جميع البشر إلى الخلاص، وما كان الله أقل رعاية لهم لو أنه رعى الآخرين أيضاً، وعندما أخبر الله سليمان أنه لا يوجد من يفوقه حكمة، فإنه أراد بذلك أن يعبر عن مدى حكمته، صحيح أن الله أعطى موسى الشريعة للعبرانيين وأنه خاطبهم، وكشف لهم عن نفسه كما لم يحدث لأمة من قبل ولكنه لم يستبعد الأمم الأخرى من علمه ورحمته"[1].

إذن فسبينوزا يقر بأن الله بالرغم من أنه أعطى الشريعة للعبرانيين، وخاطبهم وكشف لهم عن نفسه، إلا أنه لم يستبعد الأمم الأخرى من علمه ورحمته، بل إن العبرانيين بالرغم مما أعطاهم الله من فضله لم يكونوا أصفياء الله فيما يتعلق بالحياة الحقة والتأملات النظرية الرفيعة، فيبرهن سبينوزا بمنهجه العقلي الخالص، كما لا يمانع في استخدام بعض من الأدلة النقلية من نصوص الكتاب المقدس على أن اليهود ليسوا شعب الله المختار كما يظنون عادة، وبالتالي يُنكر العهد والوحي الباطني الخاص بهم، أي ينكر أساس العهد القديم كما يفهمه المؤمن العادي، وشمل نقد سبينوزا المسيحيين كذلك، خاصة الكاثوليك منهم الذين ورثوا هذه الفكرة من اليهود، وبالتالي يشمل كل نظرية عنصرية تريد تفضيل شعب معين على باقي الشعوب[2].

لقد أرسل الله الوحي للبشر، فكان لابد أن تحدث النبوة في جماعة وقد حدثت في بني إسرائيل لظروف تاريخية بحتة أي لظروف طارئة دون أن يدل ذلك على اختيار أبدي لهم أو على اصطفاء الله لهم، وتفضيلهم على العالمين بصورة دائمة ومطلقة.

(1) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: د. حسن حنفي، ص٥٣، ٥٤..

(2) د. حسن حنفي: هامش كتاب سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ص١٦٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فإذا كان الكتاب المقدس لدى اليهود يتحدث عن ميثاق خاص بالعبرانيين فإن سبينوزا يرى أن هذ الميثاق كان مؤقتاً وليس أبدياً؛ وعلى ذلك فلم يختر الله أمة بعينها، مفضلاً إياها على الأمم الأخرى[1].

فإذا زعم العبرانيون بأن الله اصطفاهم وفضلهم على العالمين فإن سبينوزا يقول بأن هذا الاصطفاء وذلك التفضيل كان مؤقتاً وليس أبدياً، وذلك على عكس الأتقياء الذين حددوا ميثاقهم مع الله، ميثاق الحب والمعرفة والفضل وهم القلة القليلة الباقية التي يستمر بها الوحي في التاريخ. فلقد دعا سائر الأنبياء جميع الأمم إلى هذا الميثاق الجديد لا فرق بين العبرانيين وغيرهم[2].

بل يُلمِّح سبينوزا كثيراً مستهزئاً بتاريخ العبرانيين الأسود، فقد ظلوا مشردين في أنحاء الأرض وعاشوا منبوذين من سائر الأمم، حتى أنهم جلبوا على أنفسهم أحقاداً وضغائن لتكوينهم جماعات مغلقة معزولة داخل الأمم أو الدول التي عاشوا فيها، مما جعل أهل هذه الدول يستنكرون أن تكون هناك دولة أخرى داخل دولتهم.

فالميثاق لا يمكن أن يكون أحادي الطرف، بل هو ميثاق متبادل بين الله والإنسان، يهب الله التوفيق والهداية

في مقابل طاعة الإنسان، وهو ليس مادياً يعطي نعماً مادية: الأرض والمدينة والمعبد والهيكل، بل ميثاق روحي خالص من التوفيق والسداد وحسن العاقبة. وهكذا يهدم سبينوزا اعتقاد اليهود . من خلال منهجه العقلي ومنهجه التاريخي أيضاً . بأنهم شعب الله المختار، وما هي سوى أكذوبة كبرى من أكاذيب اليهود.

من خلال نقد سبينوزا السابق ظهر جلياً كيف أنه ينظر إلى عقيدة شعب الله المختار على أنها عقيدة باطلة وأكذوبة كبرى، يكذبها العقل والتاريخ والواقع، وأكد على أن الكتاب المقدس قد أصابه التحريف والتغيير والتبديل، صرح سبينوزا بكل ذلك وهو لا يكترث لما

(1) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: د. حسن حنفي ،ص١٨٢ .

(2) د. حسن حنفي: في الفكر الغربي المعاصر، ص٦١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سيتعرض له من عقوبات ومن لعنات وطرد من الكنيس اليهودي، وهذا ما حدث معه بالفعل.

وموقف الفيلسوف اليهودي (سبينوزا) هذا يتشابه مع موقف فيلسوف يهودي آخر سابق عليه عاش في ظل الحضارة الإسلامية، فتأثر بها، حتى أن الكثير يعدونه ضمن فلاسفة الإسلام باعتبار الحضارة الإسلامية التي نشأ فيها، وهو (ابن سعديا الفيومي ٨٩٢ - ٩٤٢م) من هذه المسألة.

فقد بيّن الفيومي أيضاً: "أن الله هو إله البشر جميعاً، بوصفه خالقاً لهم، وبالتالي يستحيل أن يفضل بعضهم على بعض، أو يميز بعضهم على بعض على الإطلاق. وعلى ذلك أعاد تفسير بعض الآيات التي توحي بأن الله قد اتخذ من اليهود جماعة وحزباً له وفضلهم على سائر الأمم والجماعات الأخرى، وفسر ذلك تفسيراً مجازياً مؤداه أنه رب لجميع المؤمنين والصالحين، وبالتالي لا يكون رباً لطائفة أو فئة أو جماعة بعينها دون غيرها من الجماعات الأخرى. واعتبر أن تعبيرات مثل إله إبراهيم، أو إله العبرانيين تشير إلى أنه رب للجميع رب للأنبياء والمؤمنين، وأن هذا تشريف وتعظيم منه لكل الصالحين بلا استثناء"[١].

يقول ابن سعديا الفيومي: "وعلى الملك إذ جميع المخلوقين فهم له خلق وصنعة فلا يجوز أن نقول إنه يملك هذا دون هذا ولا أن ملكه لهذا بأكثر ولهذا بأقل والذي نرى الكتب تقول أن قوماً خاصته وملكه وحصته ونحلته (تثنية ٣٢ :٩)، فإنما ذلك على سبيل التشريف والتفضيل لما كان عندنا أن حصة كل إنسان ونصيبه عزيز أن عنده بل قد تجعله هو أيضاً على طريق المجاز نصيب الصالحين وحصتهم كقولها (مزامير ٥/ ١٦)، فهذا أيضاً على سبيل الاختصاص والتفضيل، وعلى هذا يكون معنى تسميته رباً للأنبياء والمؤمنين كقوله إله إبراهيم، وكقوله إله العبرانيين، إذ هو رب الكل وإنما هذا تشريف وإجلال الصالحين"[٢]

(١) د. يحيى ذكري: علم الكلام اليهودي سعيد بن يوسف الفيومي "سعديا جاءون نموذجاً" الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، ربيع الأول ١٤٣٧هـ. يناير ٢٠١٥م، ص١٣٥ .

(٢) سعيد بن يوسف الفيومي: الأمانات والاعتقادات، نشره لانداور، ليدن، ١٨٨٠، ص١٠٣، ١٠٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فسبينوزا وابن سعديا الفيومي وغيرهم من فلاسفة اليهود لم يعترفوا بهذه الأكذوبة، أكذوبة شعب الله المختار بل انتقدوها وأثبتوا بطلانها. وهنا لا نستبعد تأثر سبينوزا بالفيومي، لأن الفيومي فيلسوف يهودي متقدم عليه، عالج هذه المسألة.

فمما تذكره التوراة المحرفة في عقيدة شعب الله المختار: ما جاء في سفر اللاويين: "أنا الرب إلهكم، الذي ميزكم عن الشعوب، تكونوا لي قديسين؛ لأني قدوس، أنا الرب، وقد ميزتكم عن الشعوب لتكونوا لي"(١).

وتقول التوراة في سفر التثنية: "إنك يا إسرائيل شعب مقدس للرب إلهك، إياك قد أختار الرب إلهك لتكون له شعباً أخص عن جميع الشعوب الذين على وجه الأرض، ليس من كونكم أكثر من سائر الشعوب، بل من محبة الرب إياكم، وحفظة القسم الذي أقسم لأباءكم"(٢).

"وهذا منهم زعم باطل، وتمويه وتضليل، قام به من كتب التوراة المحرفة وهذا هو شأنهم دائماً في التضليل، وإلباسهم الحق بالباطل"(٣)، وفي ذلك يقول الله منددا بهم، ومشيراً إلى سوء فعلهم وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(٤).

"وبالغ التلمود وبروتوكولات حكماء صهيون في تبيان أفضلية اليهود واختيارهم، فذكروا أن الفرق بين الإنسان والحيوان كالفرق بين اليهود وباقي البشر، وقررا أن لليهود وحدهم الحياة الأبدية، وأن أرواحهم من روح الله دون سائر الشعوب"(٥).

فاليهودية المحرفة ديانة عنصرية، "والصهيونية والنازية تشتركان في ادعاء السيادة والامتياز على البشر، فالنازية أُسّست على أن الألمان عنصر ممتاز نقيّ يسمو على كل عناصر البشر، وليس هناك من يضاهية رِفْعَةً وسمواً، ولما كانت هذه المبادي نفسها هي مبادئ

(١) سفر اللاويين، ٢: ٢٤ . ٢٦.

(٢) سفر التثنية، ٧: ٦ . ٨ .

(٣) د. عوض الله حجازي: مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام، الطبعة الثانية،١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص١٣٢.

(٤) سورة البقرة: الآية ٤٢.

(٥) د. أحمد شلبي: مقارنة الأديان (اليهودية)، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية عشر، ١٩٩٧م، ص٢١٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اليهود، فإن صداماً ضخماً حدث بين الطائفتين، لأن كلاً منهما يدعي أنه أفضل من الآخر، وفي مكان السيادة بالنسبة له"[1].

ومن خلال نقد سبينوزا السابق يظهر جلياً كيف أنه ينظر إلى عقيدة شعب الله المختار على أنها عقيدة باطلة وأكذوبة كبرى، يكذبها العقل والتاريخ والواقع، وأكد على أن الكتاب المقدس لديهم قد أصابه التحريف والتغيير والتبديل، صرح سبينوزا بكل ذلك وهو لا يكترث لما سيتعرض له من عقوبات ومن لعنات وطرد من الكنيس اليهودي، وهذا ما حدث معه بالفعل.

العقد الاجتماعي والنبوة:

يؤكد سبينوزا أن المعرفة العلمية بالطبيعة لا تقل أهمية ويقيناً عن المعرفة النبوية فإذا كانت المعرفة النبوية يقينية أوحاها الله للناس فالمعرفة الطبيعية معرفة يقينية أيضاً حيث وصل إليها العقل بنفسه. النبي هو مفسر الأوامر الإلهية للناس لأنهم لا يقدرون بأنفسهم الاتصال بالله ولا يقدرون على إدراكها بالإيمان، والمعرفة الطبيعية أيضاً معرفة إلهية لأنها معرفة يقينية، فالله يتحدث ونحن نعرف حديثه إما من المعرفة النبوية أو من المعرفة الطبيعية.

فالمعرفة النبوية تتفق مع المعرفة العقلية في أن كل منهما نحصل عليه من الله ومشيئته الأبدية، ولذلك يمكننا تسمية المعرفة العقلية معرفة إلهية كالوحي تماماً، بل إن المعرفة العقلية الإنسانية تكون أوضح وأكثر تميزاً لأنها تأتي من الطبيعة الإلهية دون توسط. أما المعرفة النبوية فهي خيالية في المقام الأول، فالأنبياء أعظم الناس خيالاً لا فكراً.

ويرى حسن حنفي في هذه النقطة . من فكر سبينوزا . أن الأنبياء قد حصلوا على يقين المعرفة النبوية من الوحي وحده؛ لأنها ليست معرفة عقلية تعتمد على يقين العقل، ومن هذه الناحية تكون النبوة أقل من المعرفة العقلية التي تعتمد في يقينها على نفسها لا على الآيات الخارجية كما هو الحال في النبوة، ومن ثم يقول سبينوزا: "فالنبوة إذن من هذا الوجه أقل من

(1) المرجع السابق، ص٢١٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المعرفة الطبيعية التي لا تحتاج إلى آية ما، بل تتضمن بطبيعتها اليقين"[1]. لذلك لم يكن يقين النبوة عقلياً رياضياً. كما هو الحال في المعرفة العقلية. بل يقيناً خلقياً.

وهكذا يصل سبينوزا مع منهجه العقلاني إلى تفضيل المعرفة العقلية، على المعرفة النبوية. لأن النبي. عنده. يتلقى الوحي عن طريق المخيلة، بينما يدرك الفيلسوف الحق بالعقل الفطري، والمخيلة مشوبة بالحس، بينما العقل مجرد من الحس، وبما أن العقلي مقدم على الحسي، فالفيلسوف أعلى رتبة من النبي. عنده. في الجانب الإبستمولوجي، حيث يرى سبينوزا أن الفيلسوف أكمل الناس عقلاً، أما النبي فأخصبهم خيالاً.

"وبالرغم مما قد يؤدي ذلك إلى الشك في المعرفة النبوية، فإن سبينوزا يشير إلى أن النبوة على درجة كبيرة من اليقين، ويعتمد هذا اليقين النبوي على أسس ثلاثة:

١. تخيل الأنبياء للأشياء الموحى بها بطريقة حية كإدراكنا للأشياء الطبيعية.
٢. اعتماد الأنبياء على الآيات والمعجزات.
٣. ميل الأنبياء الطبيعي إلى العدل والخير، الأساس الأول خاص بالنبي والأساسان الآخران للبشر جميعاً"[2].

فسبينوزا يرى أن ما نعرفه بوضوح وتميز إنما يصدر عن طبيعة الله وتصورنا له. والمعرفة الطبيعية عامة للبشر جميعاً، والحقيقة أنه لا فرق بين المعرفة النبوية والمعرفة الطبيعية إلا في أن المعرفة النبوية تستعمل الصور الخيالية من أجل التأثير على النفوس في حين أن المعرفة الطبيعية غايتها الحق، وفيما عدا الوسيلة والغاية فلا فرق بين المعرفتين، وبالتالي فإن ما يصبو إليه الإنسان لا يتعدى ثلاث غايات، هي:

أ- معرفة الأشياء بعللها الحقيقية.
ب- السيطرة على انفعالات النفس للتحلي بالفضيلة.
ت- العيش في سلام مع جسم سليم معافى.

(1) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: د. حسن حنفي ،ص١٤٣.
(2) د. حسن حنفي: في الفكر الغربي المعاصر، ص٦٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إن وسائل الحصول على الغايتين الأولى والثانية موجودة في الطبيعة الإنسانية ومن ثم هي لا تقتصر على أمة دون أخرى. أما الغاية الثالثة فهي تعتمد على الأشياء الخارجية كما تعتمد على الرزق والحظ الذي يجهله الجميع لذلك اعتمد على تنظيم حياتهم وتعودوا على اليقظة وقد دلت التجربة على أن أفضل وسيلة لذلك هو تكوين مجتمع تحكمه القوانين على أرض معينة وتوحيد قوى سكانها في هيكل اجتماعي واحد، وبعبارة أخرى يقيم هؤلاء السكان عقداً اجتماعياً فيما بينهم من أجل تحقيق مصلحة عامة بينهم تعطي مجتمعهم مزيداً من الأمن والاستقرار يكون أقل اعتماداً على الحظوظ. لذلك فإن النظام الاجتماعي الذي كان يتمتع به الشعب العبراني هو الذي ميزه عن باقي الأمم وهو السبب في اختيارها مربطاً للوحي والنبوة وبهذا المعنى فقط تم تفضيلها وقد بقيت الدولة العبرية سنين طويلة ولم يكن السبب بتفوقها في العقل أو صفاء النفس بل كان في تفوق العبرانيين بتدبير شؤونهم المادية من خلال نظام اجتماعي تعاقدوا عليه صراحة أو ضمناً، وفيما عدا ذلك يساوى العبرانيون مع غيرهم"[1]

وقد عثر سبينوزا على نصوص كثيرة في الكتاب المقدس تدل على أن الله لم يصطف العبرانيين إلى الأبد ولم تكن النبوة هبة خاصة للعبرانيين وحدهم بل كانت عامة للأمم وهذا ما يشهد به التاريخ المقدس، وفي زمن سبينوزا لم يعد للعبرانيين هذا الحق بعد انهيار دولتهم وبعد خرقهم ميثاق الفضيلة والطاعة وحق عليهم أن يكونوا مشتتين في الأرض ومنبوذين من جميع الأمم لإقامتهم الشعائر المعارضة لجميع الأمم.

(1) د/ محمد غلاب: المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة، ص١١٨ ـ ١٢١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث السادس

المعجزة

استعمل سبينوزا في دراسته للنبوة منهج النص الذي يعتمد على الكتاب وحده أما في دراسته للمعجزة فإنه اعتمد على النور الفطري عند الإنسان؛ وذلك لأن النبوة تتعدى حدود الذهن الإنساني فيكون موضوعها داخل اللاهوت في حين أن المعجزة موضوع فلسفي محض، يمكن دراستها بالاعتماد على النور الفطري هذا النور الذي يدرك جيداً أن الإيمان بالمعجزة ليس ضرورياً للخلاص.

لقد تعود الناس تسمية كل عمل إلهي يجهلون علته عملاً إلهياً ويظن العامة أن قدرة الله لا تظهر إلا عندما تخرق قوانين الطبيعة التي تخضع لقوة الله أو التي خلقها الله والتي تتصورها العامة مثل قوة الملك وقوة الطبيعة كقوة عارضة لاحقة به، أو كقوة الرعية بالنسبة للحاكم المطلق.

ويسمي بسطاء المؤمنين عجائب الطبيعة أفعال الله أو معجزات الطبيعة تعبيراً عن تقواهم وجهلاً بعلوم الطبيعة والعلل الطبيعية وتقديساً منهم لما يجهلونه أو يعجبون به، ولا يتصوروا عظمة الله إلا عندما تخرق قوانين الطبيعة ويظنون أن أكبر برهان على وجود الله هو خلل نظام الطبيعة، ويرون أن تفسير هذه الظواهر بعللها الطبيعية المباشرة إنكاراً لوجود الله.

الله والطبيعة عند العامة طرفان متناقضان ، إذا عمل الله تتوقف الطبيعة وإذا عملت الطبيعة توقف الله. هناك إذن قوتان متمايزتان متعارضتان . عندهم . قوة الله وقوة الطبيعة التي تخضع لقوة الله والتي خلقها الله كما يتصور العامة[1].

والحقيقة عند سبينوزا أن نظام الطبيعة ثابت لا يتغير ولا يحدث فيه شئ مخالف له أما بالنسبة لله فكل ما يريده يتضمن حقيقة وضرورة أبديتين وذلك لأن عقل الله وإرادته شئ واحد، لأن كل شئ يحدث لنا إنما يحدث بمشيئة الله. وتكون قوانين الطبيعة الشاملة تصدر

(1) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: د. حسن حنفي ص٢١٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عن ضرورة لطبيعة الإلهية وكمالها. فلو حدث شئ مخالف لهذه القوانين فإنه بالتالي يناقض عقل الله وطبيعته ولو فعل الله شيئاً مناقضاً لقوانين الطبيعة فإنه يعمل ضد طبيعته هو وهذا مستحيل[١].

كما يستدل سبينوزا على استحالة المعجزة .كما يتصور. بهذا الدليل، وهو" أن قدرة الطبيعة هي قدرة الله،

وقدرة الله مماثلة لماهيته، وقوانين الطبيعة لا نهائية كالعقل الإلهي. فالمعجزة إذن عمل من أعمال الطبيعة نجهل عللها المباشرة ولا نستطيع إدراكها بالنور الفطري، والمعجزة بالمعنى التقليدي أي خرق الطبيعة مستحيلة الوقوع لأن قوانين الطبيعة صفات الله وصفات الله لا تتغير أو تتوقف عن الفعل لحظة"[٢].

فالمعجزات عند سبينوزا ليست خرقاً للقوانين الطبيعية، لكنها حوادث طبيعية تقع طبقاً لقوانين طبيعية نجهلها حتى الآن، وتقدم العلم كفيل بمعرفتها. فلا شك عنده أن الكتب المقدسة قد روت كثيراً من الوقائع التي يقال عنها معجزات، ويمكن دون عناء تعيين علتها بالمبادئ المعروفة للأشياء الطبيعية، الأمر الذي يرفع عنها فعل الإعجاز[٣].

وعلى هذا فإن سبينوزا ينكر وجود المعجزات الخارجية للوحي والنبوة، لأنه ينكر ببساطة كل وحي خارجي ولا يؤمن إلا بالوحي عن طريق النور الفطري الذي هو منبع الفلسفة كما أنه منبع الطاعة والتقوى؛ ومن ثم فهو ينكر أي شئ غير طبيعي؛ [٤] لأن "قدرة الطبيعة هي ذاتها قدرة الله"[٥] ، وليس معنى أننا نجهل العلل الطبيعية لشئ ما أن نعتبره معجزاً؛ إذ "من

(١) المصدر السابق، ص ٢١٦.

(٢) د. حسن حنفي: في الفكر الغربي المعاصر، ص٦٥.

(٣) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: د. حسن حنفي ، ص٢١٥.

(٤) د. مصطفى النشار: مدخل جديد إلى فلسفة الدين، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م، ص٢٤٣ .

(٥) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: د. حسن حنفي ، ص١٤٣ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المؤكد أننا بقدر ما نجهل العلل الطبيعية، لن نكون قد فهمنا قدرة الله"[1]. وفي هذا حث للبشر على أن يعرفوا مدى قدرة الله من خلال تفسيرهم لكل ما هو طبيعي، مدركين علله التي تمثل هي ذاتها قدرة الله. أما بالنسبة لعلة معرفة النبوة "فلسنا في حاجة إلى معرفتها"؛ إذ يكفينا في رأي سبينوزا أن ننظر في تعاليم الكتاب المقدس لنستخلص منها نتائج هذه التعاليم كما نفعل تماماً مع معطيات الطبيعة، لكن من دون أن نبحث في علل هذه التعاليم الإلهية[2].

ومن هذه الأدلة وغيرها يستنتج سبينوزا أن المعجزة لا وجود لها إلا في ذهن العامة ولا تناقض أو خلاف إطلاقاً بين الله والطبيعة لأن الله والكون والطبيعة نظام ثابت وقوانين مطلقة لا تتغير.

"وهذا ما قاله فونتنل، وريتان بعد ذلك، الأول باسم العقل والثاني باسم العلم، لذلك كان سبينوزا من أنصار الحتمية في الطبيعة. إن الله هو الطبيعة الطابعة، والعالم هو الطبيعة المطبوعة"[3].

بل يرى سبينوزا أن الإيمان بالمعجزة يتعارض مع الإيمان بوجود الله بل يؤدي للإلحاد، وأن عدم وجود المعجزة دليل على وجود الله، فيقول: "ونحن لا نستطيع أن نعرف عن طريق المعجزة وجود الله أو ماهيته أو عنايته، بل نستطيع أن نعرف ذلك من نظام الطبيعة الثابت الذي لا يتغير. إن وجود المعجزة يجعلنا نشك في وجود الله لأن المعجزة ليست واضحة ومتميزة ومعرفتنا بالله معرفة واضحة ومتميزة، كما أن المعجزة واقعة محدودة تدل على قدرة محددة ولا تثبت الله ووجوده وقدرته المطلقة. إن قوانين الطبيعة الثابتة أعظم دليل على وجود الله بل إن المعجزة لا تحدث خارج الطبيعة بل بداخلها مع أننا نصفها بأنها فوق الطبيعة، وبذلك يؤدي الإيمان بالمعجزات إلا الإلحاد"[4].

(1) المصدر السابق، ص١٤٣.

(2) نفس المصدر والصفحة.

(3) د. حسن حنفي: في الفكر الغربي المعاصر، ص٦٥.

(4) د. حسن حنفي: في الفكر الغربي المعاصر، ص٦٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم يتعرض سبينوزا بالنقد للمعجزات الواردة في الكتاب المقدس على وجه الخصوص؛ لأنها خضعت لعوامل ذاتية من الرواة فلم يحدث تثبتاً في النقل مما أدى إلى اختلاف الروايات بعضها عن بعض، مما يؤدي إلى الشك في حدوثها.

فيقول: "وكثيراً ما خضعت المعجزات في الكتاب المقدس إلى أساليب الرواية وطرقها، فمن النادر أن ينقل الراوي ما حدث بالفعل دون أن يزيد عليه شيئاً خاصة إذا كان يتعدى حدود فهمه، وكثيراً ما اختلفت روايتان لنفس الحادثة حسب تأثر كل راوٍ بما شاهد وسمع، لذلك يجب لتفسير المعجزة معرفة أفكار الرواة الأوائل وأول من قاموا بتدوينها ثم الفصل بين هذه الأفكار وشهادة الواقع وإلا لتمّ الخلط بين الواقع والخيال (مثل نزول الله من السماء في عمود من دخان على جبل سيناء، وصعود إلياس إلى السماء في عربة من نار تجرها خيول من نار) كما يجب دراسة أساليب البيان عند العبرانيين وطرق البلاغة وكثيراً من وجوه التشبيه والإستعارة والمجاز، ولا يوجد في الرواية ما يستعصي على النور الفطري"[1].

ومن ثم يرفض سبينوزا الإيمان بالمعجزة، بل يعد القول بها من قبيل الخرافة؛ حيث يقول: "إن الدين لا يحتاج إلى محسنات من الخرافة، بل على العكس تضيع روعته لو زيناه بمثل هذه الأوهام". وهو الأمر الذي سيتردد بعد ذلك مع هيوم و كانط (Kant) وهيجل وإرنست رينان (١٨٣٢ . ١٨٩٢)، وإميل ليتره (١٨٠١ . ١٨٨١)، حيث تبدو المعجزات أشياء لا تحدث أبداً فهي متعارضة مع ناموس العقل. وإذا كان هذا يعني . في جانب من جوانبه . إخلاص سبينوزا لمنهجه العقلي الديكارتي في البداهة والوضوح في مناقشته لقضية المعجزات ؛ فإنه يعكس في الوقت ذاته عدم معرفة سبينوزا بطبيعة المعجزة في الإسلام؛ إذ إن المعجزة فيه لم تكن معجزة حسية مؤقتة قام بها النبي ذاته، وإنما هي متمثلة في إعجاز القرآن نفسه، ثم في انتهاجه للأسلوب البرهاني في التدليل على صدق قضاياه، ومطابقة الواقع، والاتساق الداخلي، هذا فضلاً عن أن معجزة القرآن ذات حجية دائمة ومستمرة يمكن أن يتحقق من

(١) المرجع السابق، ص٦٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صدقها بواسطة العقل أهل الأزمنة التالية لنبي الإسلام"[1].

فسبينوزا قد جانبه الصواب في إنكاره للمعجزات الحسية التي وقعت على أيدي الأنبياء السابقين، وهذا الحكم منه لا ينسحب على الإسلام، لأن المعجزات في الإسلام ليست حسية فقط.

فالمعجزة في الإسلام "إما حسية، وإما عقلية: وقد كان الطابع الذي يجمع بين معجزات الأنبياء السابقين هو الطابع الحسي المادي، كيد موسى وعصاه، وإبراء عيسى للأكمه والأبرص وإحيائه الموتى بإذن الله، لكن المعجزة الخالدة لسيدنا محمد . صلى الله عليه وسلم .كانت عقلية وهي القرآن"[2].

"لقد كان القرآن الكريم هو المعجزة العقلية المحضة، التي هدت الناس لا عن طريق الخوارق الحسية . كما كانت معجزات الأنبياء السابقين . وإنما عن طريق العقل والفكر والنظر في القرآن وأساليبه المعجزة وأخباره المعجزة، وغير ذلك من وجوه إعجازه، ففي وضع كلمة في موضعها إعجاز يحتاج إلى التفكير والنظر.

ومع أن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . قد أوتي كثيراً من المعجزات الحسية إلا أنها لم تكن هي الطريق الأساسي لإثبات نبوته فقد كان الطريق الأساسي هو المعجزة العقلية"[3].

"ولما كان سيدنا محمد . صلى الله عليه وسلم . خاتم المرسلين وكانت رسالته عامة لأهل الأرض جميعاً وشاءت حكمة الله أن تكون معجزته باقية خالدة على مر السنين، كانت معجزته عقلية، لأن المعجزة الحسية لا يؤمن بها إلا من يراها في زمانها ومكانها، بخلاف العقلية الصالحة لكل زمان ومكان"[4].

(1) د/ محمد عثمان: العقائد الكبرى بين حيرة الفلاسفة ويقين الأنبياء، دمشق، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، ص١٩٨ . ١٩٩ .

(2) د/ موسى شاهين لاشين: اللآلئ الحسان في علوم القرآن، مطبعة دار التأليف، بمصر، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ص٢٤٣.

(3) د/ سعد الدين السيد: المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم، دار المعارف، الطبعة الثانية، ص٢٧.

(4) د/ موسى شاهين لاشين: اللآلئ الحسان في علوم القرآن، ص٢٤٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والفرق بين المعجزات الحسية والمعجزة العقلية: "أن المعجزة العقلية تقنع العقل وتدفعه إلى لتفكير والوصول إلى الحقائق بتعقل وروية، أما المعجزات الحسية فهي تفحم العقل وغالباً ما تكفه عن الروية وتضطره بالإفحام القاهر إلى التسليم؛ ذلك أن المعجزات الحسية إنما تعتمد على الشعور والوجدان، فهي لإقناع من لم يقتنع بتفكيره"[1].

فالمعجزة في الإسلام على نوعين معجزات حسية، وقعت على يد النبي . صلى الله عليه وسلم . ، ومعجزة عقلية وهي القرآن الكريم الذي سوف يظل معجزاً يتحدى جميع الخلق إلى قيام الساعة، معجزاً في بلاغته وفصاحته، وفي منطقه العقلي وأساليبه العقلية في الحجاج وإفحام الخصوم، وفي إشاراته العلمية والتاريخية.

⟸ نستنتج مما سبق:

أن سبينوزا ربوبياً خالصاً؛ فالربوبي شخص يؤكد وجود الله الذي يمكن معرفته عن طريق العقل والنور الفطري، وينكر الوحي بحجة أن العقل البشري وحده قادر على أن يعطينا كل ما نحتاج إلى معرفته لنحيا حياة أخلاقية ودينية صحيحة، وليس له أي صلة بالعالم، لأنه يتركه يعمل وفق القوانين الطبيعية الثابتة التي لا تتغير، وهو الأمر الذي تجلى بوضوح في مذهب سبينوزا وخاصة وحدة الوجود بين الله والطبيعة، وفي رفض الوحي والمعجزات، وتقديم المعرفة العقلية على المعرفة النبوية. فهو ينتمي إلى الربوبية الكلية، التي تجمع عناصر الربوبية مع عناصر وحدة الوجود والاعتقاد بأن الكون نفسه هو الإله.

(1) العقاد/ التفكير فريضة إسلامية، الأعمال الكاملة، دار الهلال، ب.ت، ص٨٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث السابع

الفرق بين النبي والحواري

بعد أن انتهى سبينوزا من دراسة التوراة أو العهد القديم ونقده، بدأ بدراسة الإنجيل أو العهد الجديد ونقده، ويركز دراسته على موضوع واحد وهو الفرق بين النبي والحواري أي الفرق الذي غفله المسيحيون أنفسهم في الخلط بين الوحي والإلهام أو باصطلاح المسلمين بين النبي والصحابي، وبلغة العهد الجديد بين الإنجيل والرسائل. ويأخذ سبينوزا (بولس) أقوى شخصية بين الحواريين، كمثل للمقارنة بين النبي والحواري. فمن حيث طريقة التعبير نجد أن النبي لا يستدل بل يتحدث معتمداً على السلطة الإلهية، أما الحواري فإنه يستدل ويناقش ويجادل ويحاجج، ويبلّغ النبي حقائق النبوة التي عرفها من الوحي أما الحواري فإنه يفكر ويعتمد على العقل وعلى النور الفطري، لم يكن لدى بولس إذن وحي من فوق الطبيعة بل آراء شخصية له ونداءات إنسانية ودعوات للأخوة وللفضيلة وهو ما يعترف به بولس نفسه في حين أن موسى قد بعث بأمر الله، وتحدث بوحي منه وبلغ رسالته، وكما اختار بولس أقواله اختار أيضاً بمحض إرادته الأماكن التي بشر فيها في حين أن موسى قد بشر في أماكن حددها الله له ووجهه فيه. لقد بشر الحواريون باعتبارهم علماء وفقهاء ورجال دين، لا باعتبارهم أنبياء وهم بهذا المعنى قد أرسلوا إلى البشر جميعاً في حين أن النبي قد أرسل لأمة معينة لأن تبليغ الرسالة ليس موقوفاً على شعب معين أو مكان معين أو زمان معين[1].

وبعد أن انتهى سبينوزا من وضع الكتاب المقدس بعهديه موضع النقد والتمحيص وانتهى إلى كثير من النتائج الصحيحة التي أيدها النقد بعد ذلك في القرون التالية وضع تفرقة بين الوحي المكتوب والوحي المطبوع، فالأول هو موضوع النقد، أي دراسة الوحي من حيث الرواية ونقلها وصحتها ولغتها، أي الوحي من حيث هو صورة، والثاني موضوع الفلسفة أوالتصوف وهو الوحي من حيث هو معنى مطبوع في القلب ومسطور في النفس، أي الوحي الذي يفضله سبينوزا يعده معبراً عن الحقيقة الإلهية أصدق تعبير.

(1) اتيان باليبار: سبينوزا والسياسة، ترجمة منصور القاضي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، بيروت، ١٩٩٣م، ص٧٠ – ٨٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولذا فإننا نفهم ما يعنيه سبينوزا بالوحي المكتوب والوحي المطبوع أو الميثاق الحقيقي للشريعة الإلهية، وبعد أن وضع الكتاب (أي الوحي المكتوب) موضع الشك وجعله عرضة للنقد التاريخي، وأنه إذا كانت أقوال الأنبياء يقينية الصدق فإن دعاوى الحواريين احتمالية الصدق، بل إنه يكاد يصرح في أماكن عديدة من الرسالة بأن كلام الله المكتوب في الكتاب "مزيف ومنقوص ومحرف، وأننا لا نملك منه سوى شذرات"[1].

ومن ثم فهو يقر الوحي العقلي أو الوحي المطبوع في القلوب المفطور في النفس الإنسانية المعروف بالنور الفطري، وهو الوحي الذي لا يتغير ولا يتبدل ولا يزيف، وهو شريعة الحب وقانون العدل والإحسان، ولذلك فهو أفضل عند سبينوزا من جميع الجهات، فسبينوزا ينشد العمل والسلوك لا النظر كنتيجة للأديان، ولذلك يقر أفضلية الوحي المطبوع على الوحي المكتوب، فإذا كان الوحي المكتوب قد أرسل لأمة بعينها فإن الوحي المطبوع قد أُعطي للإنسانية جمعاء، وإذا كان الوحي المكتوب يعرف عن طريق النبوة فإن الوحي المطبوع في القلب يعرف بالنور الفطري[2]. فإذا نُقض الميثاق المكتوب فإن الميثاق الروحي ما يزال قائماً، "فكلام الله الأبدي، وعهده والدين الحق مسطور على نحو إلهي في قلب الإنسان أي في الفكر الإنساني، وهذا هو الميثاق الحقيقي الذي طبعه الله بخاتمه"[3].

فالوحي المكتوب عند سبينوزا لا يعبر عن قصد الله من البشر؛ لأن هذا الوحي قد أصابه التحريف والتبديل والتغيير، أما الوحي الحقيقيي فهو المفطور في القلوب المعروف بالنور الفطري، وهو الميثاق الإلهي لجميع الأمم وليس لأمة دون غيرها، ونلاحظ هنا مدى إخلاص سبينوزا لمنهجه العقلي، والذي طبقه بكل صرامة؛ لتحقيق الوضوح المطلوب الذي يتناسب مع موضوع البحث من جهة، ولتحقيق أقصى درجات الموضوعية والنزاهة غير عابئ بويلات ذلك وخطورته على نفسه.

(1) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: د. حسن حنفي ، ص٣٢٧ .

(2) حسن حنفي: في الفكر الغربي المعاصر، ص٧٢.

(3) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: د. حسن حنفي، ص٣٢٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الثامن
العقل واللاهوت

وأخيراً تناول سبينوزا في رسالته عن اللاهوت والسياسة آخر مشكلاته في الدين، وهي الصلة بين العقل والدين وهي المشكلة التقليدية في فلسفات الأديان والتفكير الديني بوجه عام، مشكلة الصلة بين الفلسفة والإيمان، أو علاقة الدين بالفلسفة، وهنا أيضاً يتناول المشكلة من خلال أخلاقه العلمية وفلسفته الإنسانية، فما دامت مهمة الدين والإيمان هي تحقيق العدل والإحسان فإن سبينوزا لا يجد هنا أي مجال للجدل أو النقاش حول هذه الأخلاق العالية الكامنة في قلب الدين الحقيقي، إلا أنه من جهة أخرى يقرر بأنه لا توجد أية صلة بين العقل والفلسفة من جهة وبين الإيمان واللاهوت والدين من جهة أخرى، فسبينوزا يتبنى موقف الفصل التام بين الفلسفة والدين، ويرى أنه لا صلة هناك بين الفلسفة والدين، إذ إن مبادئ الفلسفة تختلف تمام الاختلاف عن المبادئ التي يقوم عليها اللاهوت، فغاية الفلسفة الحقيقية هي الموضوعية، وغاية الإيمان الطاعة.

يقول سبينوزا: "إن المعرفة الموحى بها لا تتناول إلا جانب الطاعة، وبذلك تتميز تميزاً تاماً عن المعرفة الطبيعية من حيث موضوعها، ومن حيث مبادئها ووسائلها. ولما كانت هاتان المعرفتان لا تشتركان في شئ، فلكل منهما أن تعمل في ميدانها دون أدنى تعارض، ودون أن تخضع إحداهما للأخرى"[1].

إن سبينوزا يحاول هنا أن يميز بين طريق الدين والوحي من جانب، وطريق الفلسفة الذي عده النور الفطري من جانب آخر. إذ إن الدين يسمح للعقل ويترك له الحرية الكاملة، فهما طريقان لكل منهما ميدانه الخاص ومع ذلك يتقاطعان ويتقابلان، فالأسفار الدينية الحاملة للوحي تحمل في مجملها فكرة يسيرة من الأفكار الإلهية التي أوحي بها للأنبياء، وهي وجوب طاعة الله بروح خالصة وذلك بممارسة العدل والإنسانية. وقد أوصى الكتاب

(1) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: د. حسن حنفي، ص١١٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المقدس الأنبياء والحواريين بأن يعلموا الناس هذه العقائد والأفكار الإلهية على قدر عقولهم حتى يضمنوا إيمان جميع الناس دون مقاومة أو تحفظ[1].

ولما كان الناس مختلفين في تكوينهم الذهني فيؤمن أحدهم بمعتقدات لا يؤمن بها الآخر ويحترم أحدهم ما يثير ضحك الآخر، فهذا يعني أنه ينبغي أن تترك لكل فرد حرية الحكم وحقه في تفسير الإيمان كما يفهم، وأن تكون الأعمال وحدها مقياس إيمان كل فرد باتفاقها أو اختلافها مع النفوس. وهكذا يستطيع الجميع إطاعة الله بحرية ورضا ولا يحرصون جميعاً إلا على العدل والإحسان[2].

فالفلسفة عند سبينوزا تقوم على مبادئ وأفكار صحيحة تستمد من الطبيعة نفسها، وتعرف بالنور الفطري، ويقوم الإيمان على التاريخ وفقه اللغة، ويستمد من الكتاب وحده.

أسلوب الفلسفة هو العقل الذي يدرك الأشياء على ما هي عليه، وأسلوب الإيمان التخيل الذي يبغي التأثير في النفوس. ولذلك يترك الإيمان لكل فرد الحرية في أن يتفلسف كما يشاء، حتى في موضوع العقائد ولا ضير في ذلك شريطة أن لا يدين إلا من يحث الآخرين على العصيان والكراهية والجدل والغضب ولا يثني إلا على من يحث على ممارسة العدل والإحسان.

إذن لكل منهما مجاله الخاص أو مملكته التي لا يتعداها.

يقول سبينوزا: "للعقل مملكة الحقيقة والحكمة..، وللاهوت مملكة التقوى والخضوع..، وإن قدرة العقل لا تذهب إلى حد يستطيع معه أن يقرر إذا كان الناس يستطيعون الحصول على السعادة بالطاعة وحدها دون معرفة بالأشياء. وفي مقابل ذلك لا يدّعي اللاهوت إلا هذا، ولا يوحي إلا بالطاعة، ولا يريد أو يستطيع أن يفعل شيئاً مضاداً للعقل. فهو يحدد عقائد الإيمان على قدر ما تتطلبه الطاعة، ويترك للعقل . الذي هو نور الفكر، والذي بدونه لا يرى إلا أحلاماً وخيالات . مهمة تحديد المعنى الدقيق الذي ينبغي أن تفهم به هذه

(1) المصدر السابق، ص١١٨ . ١١٩ .

(2) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: د. حسن حنفي، ص١١٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العقائد بغية الوصول إلى حقيقتها. وأنا أعني باللاهوت هنا، على وجه التحديد، الوحي من حيث إنه يشير إلى الغاية التي قلنا إن الكتاب يرمي إليها (أي بواعث الخضوع وطرقه، أي عقائد الإيمان الصحيح والتقوى الصادقة)، أي ما يمكن تسميته حقيقة بكلام الله، الذي لا ينحصر في عدد معين من الكتب... نستنتج إذن، على نحو قاطع، أنه لا ينبغي أن يخضع الكتاب للعقل ولا العقل للكتاب"[1]

ومن ثم يرى سبينوزا أن الباحثين الذين لا يفرقون بين الفلسفة واللاهوت يطرحون هذه المشكلة دائماً على هذه الصيغة: "هل الكتاب خادم للعقل أم العقل خادم للكتاب؟ أو بعبارة أخرى: هل يجب إخضاع معنى الكتاب للعقل أم إخضاع العقل للكتاب؟ ويرى سبينوزا أن إخضاع العقل للكتاب هو موقف الشكاك الذين ينكرون يقين العقل. وأن إخضاع الكتاب للعقل هو موقف القطعيين. بينما هو يرى أن كلتا النظريتين مخطئة أشد الخطأ؛ لأن الإقرار بصحة نظرية من هاتين النظريتين سيضعنا أمام نتيجة واحدة، وهي إما أن يصبح العقل أو الكتاب فاسد بالضرورة. ومن هنا يقرر سبينوزا أن الكتاب لا يُعلِّم الفلسفة، بل يدعو إلى التقوى وحدها، ومضمونه مهيأ لفهم العامة وأحكامهم المسبقة، ومن يرد إخضاع الكتاب للفلسفة فإنه ينسب بخياله إلى الأنبياء أفكاراً لم تخطر ببالهم حتى في الحلم. وإذا جعلنا الفلسفة في خدمة اللاهوت لاضطررنا إلى قبول الأحكام السابقة للعصور الماضية على أنها حقائق إلهية"[2].

ويرفض سبينوزا ما قام به موسى بن ميمون من إخضاع الدين والكتاب المقدس للعقل، إلا أنه أيضاً يؤكد الدور الذي يجب أن يلعبه العقل في تفسير الكتاب المقدس، وذلك من أجل تخليصه من التشويهات والتحريفات التي طرأت عليه عبر العصور، كما يرفض بشدة اتجاه (يهوذا الفخار) الذي حرم العقل من كل تأويل وتفسير للكتاب المقدس، مهما ظهر فيه من تناقضات، فيقول: (ولقد كان أول من ادعى، من بين الفريسيين، وجوب إخضاع

(1) المصدر السابق، ص ٣٦٠، ٣٦١ .

(2) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: د. حسن حنفي، ص٣٥٥. بتصرف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكتاب للعقل هو ابن ميمون (...) ومع ما يكنّ الفريسيون لهذا المؤلف من احترام بالغ، فإن جمهورهم خالفه في هذا الموضوع، واتبع رأي يهوذا الفخار الذي أراد أن يتجنب خطأ ابن ميمون فوقع في الخطأ المضاد، وهو ضرورة نزول العقل على حكم الكتاب وخضوعه له كلية. فقد رأى أنه لا ينبغي تفسير أي فقرة من الكتاب تفسيراً مجازياً (كما يفعل بعضهم) بدعوى أن المعنى الحرفي مناقض للعقل؛ بل إن هذا التفسير لا يجوز إلا حين يتناقض هذا المعنى مع الكتاب ذاته؛ أي مع العقائد التي يدعو إليها بوضوح"[1]

يرفض سبينوزا رفضاً تاماً خضوع العقل للإيمان المبني على الكتاب المقدس المحرف، فالعقل هبة رائعة، وهو النور الإلهي الذي لا ينبغي أن يخضع لحرف ميت معرض للزيف الإنساني، فيقول: "كيف يحاول رجل وهب نعمة العقل أن يهدم العقل؟ (....) لذلك فإني لا أستطيع أكتم دهشتي البالغة عندما أجد أحداً يريد إخضاع العقل، هذه الهبة العليا، وهذا النور الإلهي، لحرف مائتٍ استطاع الفساد الإنساني تحريفه، وعندما أجد أحداً يعتقد أنه لا يرتكب جرماً حين يحط من شأن العقل، وهو الوثيقة التي تشهد بحق على كلام الله، ويتهمه بالفساد والعمى والسقوط، على حين أنه يجعل الحرف المائت وصزرة كلام الله صنماً معبوداً، ومن ثم يعتقد أن أشنع الجرائم هو وصف هذا الحرف بالصفات السابقة. وهكذا يظن المرء نفسه تقياً حين يبدي ارتيابه في العقل والحكم السليم، ويرى أن الفسوق إنما يكمن في إبداء أقلّ قدر من الشك فيمن نقلوا لنا الكتب المقدسة. ولكن ما أبعد ذلك عن التقوى؟ ماذا يخافون؟ هل يلزم للدفاع عن الدين والإيمان أن يبذل الناس جهدهم من أجل الجهل بكل شئ، وأن يغلّوا عقولهم نهائياً؟"[2].

ومن خلال موقفه من يهوذا الفخار، يمتد نقد سبينوزا إلى كل أولئك الذين يزعمون إنقاذ العقيدة بمجرد ازدرائهم للعقل والتشكيك فيه. إن الارتياب بالعقل، إذا أحل بالدين، قد يشكل خطراً أعظم من شدة الوثوق به.فاللاهوتيون إذ يدحضون العقل وينفون عنه كل

(1) المصدر السابق، ص٣٥٥، ٣٥٦. بتصرف.

(2) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص٣٥٧ . ٣٥٨ . بتصرف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قيمة، ينزعون من الإنسان ما يجعل منه إنساناً ويميزه عن الحيوان؛ أي ينزعون منه القدرة على تمييز الحق من الباطل، كما لو كان من شروط الإيمان ألا يستخدم المؤمن عقله، ولا يُعمل رأيه. وعليه، "فلا عجب إن لم يبق من الدين الأصلي إلا العبادة الخارجية، وهي عند العامة أقرب إلى التملق منها إلى عبادة الله؛ إذ لم يعد الإيمان إلا تصديقاً أعمى بأوهام متعصبة، وأية أوهام متعصبة؟ إنها أوهام أولئك الذين يحطّون العقلاء إلى مستوى البهائم؛ لأنها تمنع ممارسة الحكم، وعوق التمييز بين الخطأ والصواب، وتبدو كأنها وُضعت خاصة لإطفاء نور العقل"[1].

فلابد إذاً من تجاوز كلتا النزعتين: نزعة موسى بن ميمون العقلية، والتي تسعى إلى إخضاع الكتاب المقدس للعقل، ونزعة يهوذا الفخار، التي تروم تطويع العقل للكتاب المقدس.

يرفض سبينوزا رفضاً تاماً خضوع العقل للإيمان المبني على النصوص الدينية، فالعقل هبة رائعة، وهو النور الإلهي الذي لا ينبغي أن يخضع لحرف ميت معرض للزيف الإنساني. إن العقل يستطيع أن يفهم العقائد من حيث صحتها أو كذبها، فهو النور الفطري الذي يحمي الذهن من الوقوع في الخطأ والأوهام والأحلام، وبهذا المعنى يكون الوحي متفقاً مع العقل في موضوعه، وهو الحقيقة، وفي غايته وهي السعادة، وعلى هذا النحو يمكن للدين مخاطبة البشر جميعاً باعتباره علماً شاملاً مبنياً على العقل[2]. وبهذا المعنى يكون الوحي متفقاً مع العقل في موضوعه وغايته.

⟸ **والخلاصة**: أن فلسفة الدين . عند سبينوزا . تتفق تماماً مع فلسفته (العقلانية)، فأخلاقه تتفق كل الاتفاق مع التعاليم الدينية الحقيقية. ولما كانت التعاليم الخلقية بطبيعتها متفقة مع العقل، فالنور الفطري الطبيعي الموجود داخل كل إنسان كفيل بإدراك صوت الله الذي هو عند سبينوزا سبيل إلى جميع أرجاء الكون الذي نعيش فيه ويحيط بنا بلا نهائيته وسرمديته وأبديته. مما يجعل الإيمان راسخاً فينا، فالدعوة الخلقية ليست موضوع تحريف

(1) المصدر السابق، ص١١٣.

(2) د. حسن حنفي: في مقدمته لرسالة في اللاهوت والسياسة، لسبينوزا، ص٨١ – ٨٥ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتبديل ومن يظن أن هناك تعارضاً بين الفلسفة والدين، فهو يجهل تمام الجهل حقيقة كل منهما، فكلاهما يعتمدان على العقل لهذا فإن أي إنكار لدور العقل وأهميته إنما يؤدي إلى زعزعة الثقة بالفلسفة كما يؤدي إلى ضعف الإيمان بالدين.

ويرى الدكتور فؤاد زكريا "أن رأي سبينوزا في العلاقة بين العقل والإيمان قد أدى بكثير من شراح سبينوزا إلى الاعتقاد بأنه قد جعل التفكير الفلسفي والإيمان الديني متساويين، كل في ميدانه الخاص، وأنه دافع عنهما بالقوة نفسها، ومن هؤلاء الشراح (بروشار) الذي رأى أن أحداً لم يدافع عن حقوق العقل بمثل هذه القوة، وأن أحداً لم يتحدث عن الإيمان بمثل هذا الاحترام. ووافقه في ذلك (برونشفيك) الذي فهم تفكير سبينوزا على أنه محاولة للتوفيق بين الفلسفة . كما تتمثل لدى ديكارت . وبين الإيمان كما يتمثل في المسيحية، فالغاية التي استهدفها هي تنقية ديكارت باستبعاد العنصر اللاعقلي اللامنهجي من مذهبه، وتنقية الدين من خلال التشبه بالمسيح الذي جاء ليضع حداً لكل العبادات المتحجرة؛ لأنه لا يرى الدين إلا روحياً فحسب. فالمهمة التي أراد سبينوزا إنجازها هي أن يضم في وحدة روحية جامعة ديكارت الحقيقي والمسيح الحقيقي"[1].

ولكن هذه الصورة التي رسمها شراح سبينوزا لفلسفته . والتي تتلخص في أن سبينوزا قد برر الكتاب المقدس وأكد قداسته، وبرر العقل وأكدّ قداسته، دون أن يجعل سلطة الأول تنال من الثاني . تخالف الحقيقة إلى حد كبير؛ حيث إن هدف الفصل بين مجالي الدين والفلسفة كان الغرض منه هو إبعاد سلطة رجال الدين عن كل الأمور المتعلقة بالمعرفة، وهي الأمور التي كانوا يدَّعون لأنفسهم سلطة كاملة فيها، ويتدخلون فيها على أساس أن لهم الكلمة الأخيرة حتى في هذا المجال ذاته. ومن ثم أراد سبينوزا إبعاد سلطة رجال الدين؛ لأن سلطتهم كانت هي الحاكمة المسيطرة في ذاك الوقت، وكما يقول أحد الباحثين: "ولو ظهرت مثل هذه الدعوة في القرن العشرين مثلاً، حيث يكتسح العقل كل مجالات المعرفة

(1) د. فؤاد زكريا: سبينوزا، ص١٨٩، ١٩٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البشرية، لأصبحت دلالتها عكس الدلالة السابقة: أي لأصبحت دفاعاً عن الوحي أكثر منها دفاعاً عن العقل"[1].

إن فصل سبينوزا الدين عن الفلسفة أراد منه عدم خلط المعرفة الظنية (الدينية) بالمعرفة اليقينية (العقلية) كما قرر من قبل، وأراد بذلك أيضاً فصل رجال الدين عن السلطة الساسية، وفصل الدين عن الدولة، وأن نظام الحكم الحكم الثيوقراطي وهودخول رجال الدين في السياسة يفسد الدين والدولة معاً.

كما نرى أن سبينوزا يمجد العقل ويعلي من شأنه على الدين، لأن نصوصه تحمل تمجيداً صريحاً في العقل، حيث إنه يندهش لمن يريد إخضاع العقل لسلطة أخرى أياً كان نوعها، فالعقل هذا الهبة العليا، وهذا النور الفطري لا يمكن إخضاعه لحرف ميت استطاع الفساد الإنساني تحريفه، يقول سبينوزا: "وإني لأدهش ممن يرغب في إخضاع العقل؛ تلك الموهبة الرفيعة والنور العلوي، للحرف الجامد الذي ربما كان الخبث البشري قد أفسده؛ وأدهش لأن الناس لا يرون أي جرم في التحقير من شأن العقل الذي هو التعبيرالحق عن كلمة الله؛ فيسمونه فاسداً وأعمى ومضللاً، على حين أنهم يرون من أشنع الجرائم التي تُنسب مثل هذه الصفات إلى الحرف، الذي لا يعدو أن يكون انعكاساً وخيالاً لكلمة الله. إن الناس ليظنون أن التقوى هي ألا يثق المرء بعقله وبحكمه على الإطلاق. أما الشك في إيمان من نقلوا إلينا الكتب المقدسة فهو الفجور في نظرهم، ولكن مثل هذا السلوك ليس من التقوى في شئ، وإنما هو جنون محض!" [2].

إذن فسبينوزا يقدم العقل على النقل ويجعل العقل هو الحاكم على النص، لأنه هو النور الفطري من عند الله شأنه شأن الوحي، وأن الوحي لا غنى له عن العقل؛ لذا يجب أن يكون العقل هو الأصل لكل وحي إلهي، وهو بذلك يخالف موقف فلاسفة العصور الوسطى الذين سعوا إلى التوفيق بين الدين والفلسفة، ومن ثم يمكننا القول بأن سبينوزا هو

(1) المرجع السابق، ص١٩٠، ١٩١.

(2) د. فؤاد زكريا: سبينوزا، ص١٩١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صورة صريحة معبرة عن الموقف العام الذي انتهجه فلاسفة الحداثة في العلاقة بين الفلسفة والدين أو العقل والإيمان.

كما نلاحظ هنا أن سبينوزا كما قلنا فيما سبق التمييز بين طريق الفلسفة ومشروعيتها وطريق الدين ومشروعيته، رغم اتفاقهما في النتائج. إنه يثبت في النصوص السابقة مشروعية الفلسفة بفصلها تماماً عن الدين وتمييز خطابها البرهاني العقلي المنطقي عن خطاب الدين الوعظي الأخلاق المستخدم للخطابة والمجاز والتصوير الشعري. وهو إذا كان يتفق مع ابن رشد في التأكيد على مراعاة مستويات الخطاب، وخاصة حينما يوجه للعامة مراعاة لتفكير المخاطبين، فإنه يختلف عنه تماماً حيث كان ابن رشد يستهدف فيما قاله عن ذلك في كتابه "فصل المقال" تبرير مشروعية الفلسفة فقهياًمن داخل الدين وليس من خارجه. أما سبينوزا فكان يتحدث هنا فقط عن الضرورات الداعية لنشر الخطاب الديني بأسلوبه الخطابي الشاعري من قِبَل الأنبياء لمخاطبة العامة؛ حتى يمكنهم قبوله وفهمه والإيمان به.[1]

وفي نهاية البحث نتسائل: هل كان سبينوزا ملحداً؟

لم يكن غريباً . على ضوء ما سبق من الأفكار والآراء التي صرح بها سبينوزا . أن يُنظر إليه بوصفه ملحداً، حيث إنه بدا منادياً بمذهب "وحدة الوجود" الذي لا يترك للإنسان شيئاً بجانب الله، ومنكراً للعناية الإلهية والعلل الغائية، ولم يعترف بما لله من حرية مطلقة بل قال بالضرورة، كما نقد الكتاب المقدس ورفضه وأكد تحريفه بالشواهد العلمية ، ووصفه بالحروف الميتة المحرفة.

فقد"لاحظ **(هيوم)** أن المبدأ الأساسي لإلحاد سبينوزا يتمثل في واحديته، وأطلق على ذلك "فرضاً شنيعاً"[2].

([1]) انظر: د.أشرف منصور: العقل والوحي . منهج التأويل بين ابن رشد وموسى بن ميمون وسبينوزا، رؤية للنشر والتوزيع بالقاهرة ٢٠١٤م، ص٩٢ . ٩٣ .

([2]) فردريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة، المجلد الرابع، الفلسفة الحديثة: من ديكارت إلى ليبنتز، ترجمة وتعليق: سعيد توفيق، محمود سيد أحمد، مراجعة وتقديم: د/ إمام عبد الفتاح إمام،، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ص٣٥٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلا أن هناك الكثير من الباحثين ينظروا إلى سبينوزا على أنه هو: "الذي بلور أفضل منهج نقدي تأويلي للنصوص الدينية والذي نبذته المؤسسة الدينية اليهودية، أراد أن يعيد بناء النسق اللاهوتي على أساس المنهج الهندسي الرياضي الدقيق بتنقية فكرة الألوهية من شوائب النزعات التشبيهية بالإنسان حيث يتحول الرب إلى إنسان أعلى حاملاً لصفات بشرية متعالية، مما يكرس الوهم واستغلال الدين لأغراض نفعية تخدم الاستبداد والخضوع الأعمى.

فعلى عكس القراءات القديمة لسبينوزا والقراءات الحديثة التي اعتبرته يخفي إلحاده اتقاء لبطش المؤسسة الدينية، اجتهد سبينوزا في بناء نسقه الفلسفي على مركزية الإله مبرهناً على وجوده وقوته وكماله، بصفته كائناً لا متناهياً، يتماهى مع الطبيعة، وهو جوهر له صفات لا محدودة، تعبر كل صفة منها عن ماهية أزلية لا متناهية. وإذا كان سبينوزا قد اصطدم بالمؤسسة الدينية التي اتهمته بالإلحاد في تصوره الطبيعي للإله وإنكاره القدر والمعجزات، وقوله بالضرورة الكونية في نظام الكون، فإن ما يخرج عنه سبينوزا هو التصور اليهودي . المسيحي للألوهية كما قنّنته التقاليد اللاهوتية المدرسية. يرفض سبينوزا فكرة الإله المفارق للطبيعة لأنها تؤدي إلى المس من تناهيه المطلق، كما يرفض فكرة القدر لأنها تقود إلى تقويض نظام الطبيعة الذي هو مظهر لا تناهيه المطلق. ينطلق إذن سبينوزا من مبدأ الكمال الإلهي الذي يقتضي تصوّر الإله على شكل المخلوق الفاعل المتمتع بإرادة حرة تحركها الغايات البشرية. إلا أنه لا يتبنى المقاربات المادية الإلحادية التي لا تستقيم مع قوله بالإله اللامتناهي، فالطبيعة بالنسبية له جوهراً أزلياً مطلقاً حتى ولو كانت علة محايثة لا مفارقة.

فما يميز التصور الديكارتي للإلهي عن التصور السبينوزي: هو أن ديكارت يقول بالعلة المتعدية التتابعية في نظام الوجود: يتحقق الإله بنفسه ثم يخلق العالم وليست ثمة علاقة تجانس بين نمطي العلة في المستويين باعتبار أن إحداهما محايثة ذاتية والأخرى مفارقة، في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حين أن سبينوزا يوحد بين المسارين بحيث يكون الكون هو التحقق الإلهي مما يفض إلى القول بالعلة المحايثة"[١].

ومع أن سبينوزا انتقد بشدة التصورات الأنتربومورفية (التشبيهية) في النص الديني، إلا أنه قد انتبه إلى الحاجة الاجتماعية للطاعة (الطابع الإجرائي العملي للاعتقاد)، معتبراً أن العقد الاجتماعي لا يمكن أن يكون فاعلاً دون تحويله إلى عقد مقدس، بحيث يمثل الناس طواعية للدولة المطلقة موقنين بأنهم يمتثلون لإلههم[٢].

ويقول (**ريتشارد شاخت**): "لعله يبدو لنا من الغريب أن ينظر إلى سبينوزا كواحد من الملحدين، لأن الله كان محوراً أساسياً في فلسفته، ولكنه بدا . بالتأكيد . من الهراطقة حتى في نظر اليهود، لأنه رفض النظرة اليهودية المسيحية إلى الله، وذهب بعيداً إلى حد أنه كان يستعمل كلمة "الله" وكلمة الطبيعة كمترادفين مما جعله يبدو في نظر من يعتقدون أن الطبيعة من خلق الله مساوياً لإنكار وجود الله، كما نظر إليه تقليدياً"[٣].

ويرى (**كوبلستون**) أنه لا بد من دراسة مسألة إلحاد اسبينوازا بمعقولية لا بانفعالية، وعلى نحو عقلاني لا على نحو انفعالي، ويقول: "يجب الفصل في المعنى الذي يعطى لكلمة (الله)، ثم تقرير عما إذا كان سبينوزا ينكر أو لا ينكر وجود الله،..، فإذا كانت كلمة (الله) تفهم بالمعنى اليهودي . المسيحي، من حيث إنها تعني موجوداً شخصياً مفارقاً للطبيعة، فإن التهمة "بالإلحاد" تكون صحيحة؛ لأنه صحيح إن سبينوزا ينكر وجود موجود شخصي مفارق للطبيعة،..، ويفترض أن التقرير صحيح بصورة جلية إذا كان المرء يعني "بالإلحاد" إنكار

(١) السيد ولد أباه: الدين والسياسة والأخلاق "مباحث فلسفية في السياقين الإسلامي والغربي، مطبعة جداول، بيروت الطبعة الأولى ٢٠١٤م، ص٢٩٢، ٢٩٣.

(٢) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة حسن حنفي، دار الطليعة ١٩٨١، ص٤٣١ . ٤٥٣ . وانظر: السيد ولد أباه: الدين والسياسة والأخلاق "مباحث فلسفية في السياقين الإسلامي والغربي، مطبعة جداول، بيروت الطبعة الأولى ٢٠١٤م، ص٢٩٢، ٢٩٣.

(٣) ريتشارد شاخت: رواد الفلسفة الحديثة، ترجمة: د. أحمد محمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م، ص٨٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وجود الله بالمعنى الذي يفهم به المسيحيون الكلمة، ومع ذلك، فإن سبينوزا قد يرد بقوله إنه يعرف الله الموجود اللامتناهي بصورة مطلقة، وإن المسيحيين يعنون أيضاً "بالله" الموجود اللامتناهي، رغم أنهم لا يعنون، في رأيه، مضامين هذا التعريف، وقد يقال إن توحيد الله بالطبيعة، ليس تعبيراً عن الإلحاد، بل عن الفهم الحقيقي لما تعنيه كلمة (الله)، إذا كان (الله) يُعرّف بأنه الموجود اللامتناهي بصورة مطلقة،..، إن الكُتاب الذين سخطوا بسبب التهمة إما أنهم يفكرون في الصفات السفيهة التي تضاف إليها أحياناً، أو أنهم يحتجون على استخدام كلمة (الله) بمعنى مسيحي فقط"[1].

ويقول (أ. ف . توملين): "وكانت معرفة الإله التي يسعى من أجلها حكماء الغابة إجراءاً عقلياً. لقد كانت تشبه المعرفة السامية التي تحدث عنها الفيلسوف الأوربي العظيم (بنديكت سبينوزا) الذي كانت روحه (المفتونة بالإله) تكاد تشبه إلى حد كبير روح حكماء الغابة، لقد كانت في الواقع الحب العقلي للإله"[2].

وإنني أميل مما سبق إلى أن سبينوزا ليس ملحداً ولا منكراً لوجود الله تعالى، بل وصف الله بكل كمال كما سبق أن بينت ذلك في مسألة وجود الله عنده، وإنما هو ملحد بإلاله في التصور اليهودي والمسيحي التحسيمي، الإله في الصورة الجسمية اليهودية والنصرانية، وعندما تصور سبينوزا الإله المطلق اللامتناهي تصور أنه متصل بالطبيعة غير منفصل عنها ولا منفصلة عنه.

وإنني أميل إلى ما رآه أحد الباحثين: "أنه إن نحنا في فلسفته الطبيعية عموماً، كما في بعض إشاراته المتفرقة، نزعة مادية صريحة، فإن هذه النزعة لا تتنافى مع كل تجربة روحية تتجلى سماتها في معرفة الله ومحبته، معرفة ومحبة عقليتين هما سر السعادة ومفتاح النجاة. وقد لا نغالي كثيراً إذا ما نحن تحدثنا عن نزعة روحية لدى سبينوزا، باعتباره يفكر في شروط التحاق

(1) فردريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة، المجلد الرابع، الفلسفة الحديثة: من ديكارت إلى ليبنتز، ترجمة وتعليق: سعيد توفيق، محمود سيد أحمد، مراجعة وتقديم: د/ إمام عبد الفتاح إمام، ص٣٥٣، ٣٥٤.

(2) أ. ف . توملين: فلاسفة الشرق، ترجمة: عبد الحميد سليم، مراجعة: علي أدهم، ط٢. دار المعارف، ص٢٠٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإنسان بالمطلق وانضمامه إلى الذات الإلهية بفضل الضرب الثالث من ضروب المعرفة[1]، ..، إن فلسفة سبينوزا، من دون أن تتناقض مع النزعة المادية، تفتح المجال لنزعة روحية فريدة من نوعها، إذ تقطع، على خلاف النزعات الروحية المألوفة، مع كل ضروب التعالي، ومع كل تصور ثنائي للوجود، وتحصر كينونة الإنسان واكتماله في معرفة ذاته، وفي وعيه لنفسه وللعالم، كما في إدراك اتحاده بالله. وقد يجوز الحديث أيضاً، في مقابل ذلك، عن نزعة مادية فريدة من نوعها لدى سبينوزا، من جهة كونه لا يختزل وجود الإنسان في مجرد المادة، وإنما يميزه عن غيره من سائر الكائنات الطبيعية، ويحدده بما هو كائن مفكر، ويفكر في كيانه، ويعي تفكيره هذا بصورة منعكسة لا متناهية إلى أن يدرك حقيقة الوجود ومعنى اتحاده بربه.

يبدو من المشِطّ، إذاً، أن نجرد مذهب سبينوزا من كل مسحة روحية، بل يصدع بعضهم بعدم خلو فكر هذا الفيلسوف من الطابع الديني) [2].

(1) هي المعرفة الحدسية، وهي أرقى من المعرفة التي تقوم على الظن والخيال والتجربة المحملة (الضرب الأول)، وأرقى حتى من المعرفة العقلية البرهانية (الضرب الثاني)، راجع: علم الأخلاق.

(2) د. جلال الدين سعيد: سبينوزا والكتاب المقدس، الدين والأخلاق والسياسة، ص١٧، ١٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخاتمة

لقد انتهى هذا البحث إلى العديد من النتائج، أهمها:

١. أن سبينوزا هو الديكارتي الأبرز الذي أخلص لمنهج ديكارت العقلاني أكثر من ديكارت نفسه، فإذا كان ديكارت قد استبعد العديد من المجالات عن منهجه العقلي مثل الدين الرسمي والكتب المقدسة والكنيسة والعقائد وتاريخ بني إسرائيل والأخلاق والنظام السياسي القائم والتشريعات الوطنية وعادات البلد وتقاليده ....إلخ، فإن سبينوزا لم يكن كديكارت فلم يصالح رجال الدين، ولم يهادن النظم الملكية، فهو يبغي في الأساس الأول . المصلحة العامة ضد رجال الدين، وضد نظم الحكم القائمة ويعلم أن الأمانة الفكرية، والبحث العلمي، والموقف الشريف، أجدى على الدولة وسلامتها وأمنها من النفاق الفكري، والتشويه العلمي، والتملق للسلطة والسعي لها. فيستغل سبينوزا دعوة ديكارت إلى تطبيق المنهج العقلي أحسن استغلال.

٢. إذا كان ديكارت يرى أن العقل أعدل الأشياء قسمة بين البشر فإن سبينوزا يرى أن العقل هو أفضل شئ في وجودنا، ويكون خيرنا الأقصى في كمال العقل.

٣. أن سبينوزا خالف ديكارت في نقطة الانطلاق، فنقطة الابتداء عند سبينوزا تبدأ من "الله"، بينما هي عند ديكارت تبدأ من الأنا أو النفس. فسبينوزا كما سبق في كتابه (رسالة في إصلاح العقل) يسعى عن طريق منهج التأمل إلى الارتقاء إلى فكرة الله التي هي مبدأ العلم الصحيح وقاعدته. فقد خالف سبينوزا ديكارت في مبدأ الانطلاق، فإذا كان ديكارت قد بدأ من الفكر والأنا، فإن سبينوزا ينطلق من "الله" ثم تنزل فلسفته إلى سائر الموجودات.

٤. يوافق سبينوزا ديكارت من ناحية أخرى من خلال مبادئ فلسفته التي في أساسها تقوم على الهندسة والمبادئ الميكانيكية، ويوظف سبينوزا الهندسة في عرض أفكاره، إذ يبدأ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالتعريف، ثم يذكر النظرية، ثم يتبعها بالبرهنة عليها، ويستخدم المصطلحات المستعملة في الهندسة والرياضيات لعرض مذهبه الفلسفي.

٥. لقد استخدم سبينوزا المنهج الرياضي الهندسي العقلي في بحثه للقضايا الدينية، ويعتبر هذا المنهج في بحث المسائل الدينية تأسيساً من سبينوزا لما يسمى بفلسفة الدين، أو فلسفة اللاهوت، وهو يعتبر مقدمة ضرورية لفلاسفة كبار أتوا من بعده في هذا المجال أمثال فولتير وهيوم و كانط (Kant) وهيجل، ومن ثم يمكن إخراج سبينوزا من فلاسفة القرن السابع عشر وإلحاقه بفلاسفة القرون التالية، فهو كان سابقاً لعصره يؤسس لمن جاء بعده منهجاً نقدياً عقلياً يقوم على استعمال العقل الرياضي الهندسي.

٦. انتهى سبينوزا من تطبيق المنهج العقلي على كافة القضايا الدينية إلى إثبات وجود الله؛ لكنه إله جديد يتمثل في مجموعة القوانين الفيزيائية المتحكمة، لم يخلق العالم، لأنه هو العالم، وانتهى إلى وحدة وجود لا فرق فيها بين الخالق والمخلوق، لا فرق فيها بين الله والعالم.

٧. انتهى سبينوزا إلى أن النبوة معرفة إنسانية بحتة ممكنة للعقل الإنساني، فلولا الإنسان عنده ما كانت النبوة، وأن المعرفة العقلية أعلى من المعرفة النبوية، وبذلك أسقط الوحي و العصمة عن الأنبياء، بل جعل المعرفة الفطرية عند الناس أعلى من الوحي، وأصبحت التصورات العقدية الموروثة عن العهدين القديم والجديد مجرد خيالات بشرية، وتصبح الكتب المقدسة صحائف للقراءة الإنسانية الناقدة، فضلاً عن عقيدة "الإنسان الإله" فهي عقيدة باطلة، بل هو أمر يثير حفيظة كل ذي فطرة وعقل سليم.

٨. هدم سبينوزا عقيدة شعب الله المختار، وأبطل الميثاق الأبدي لبني إسرائيل لأن العقل والتاريخ والواقع يكذبه، فقرر تحافت هذا الزعم بطريقة عقلانية اقتضاها منهجه العقلي تقوم على كمال الله وعدم أنانيته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٩. وإذا كان ديكارت قد جعل من الفكرة الواضحة المتميزة المثل الأعلى لليقين، فإن سبينوزا سار على إثره، وأخرج النبوة من نطاق الأفكار الواضحة المتميزة إلى نطاق الخيال، كذلك رفض المعجزات لأننا لا نعلمها بوضوح وتميز.

١٠. رفض سبينوزا المعجزة، ورأى أنها ظاهرة من الظواهر الطبيعية، يجهل الإنسان عللها، وأن التقدم العلمي كفيل بالكشف عن أسبابها الحقيقية، لأن للطبيعة نظام ثابت لا يتغير، فهو أوامر إلهية أبدية، وأن أي تغيير في الطبيعة يؤدي إلى الشك في وجود الله الذي لا يعتريه التغير، وبذلك يؤدي الإيمان بالله عن طريق المعجزات إلى الكفر والإلحاد، فالمعجزة تشكك في وجود الله ولا تثبت وجوده عند سبينوزا.

١١. فَصَل سبينوزا الدين عن الفلسفة، وكان هدفه من ذلك فصل الدين عن الدولة ومهاجمة الدولة الثيوقراطية، وإن لم ينكر إخضاع الكنيسة للدولة في النظام الديمقراطي؛ حتى لا تتحزأ السلطة في الدولة ويسهل الاستيلاء عليها.

١٢. أعطى سبينوزا العقل المكانة العليا والثقة الكاملة في الوصول إلى مبادئ الدين، ومنحه الأولوية في إدراك الوجود وإبداع العالم وتفسير الكتاب المقدس دون الرجوع إلى سلطة دينية، متحرراً من كل أشكال الوصاية التي تحجر على العقل أو تقيده، فأعلن أن الحقيقة هي ما يقبله العقل، والخرافة هي ما ينبذه العقل.

١٣. انطلق سبينوزا من منهجه العقلي إلى نقد الكتاب المقدس، فرفض مناهج تفسير الكتاب المقدس التي تقوم على الأوهام والخرافة والجهل والهوى، وأبعد كل هذه الأشياء التي تعيق سير العقل، كما رفض السلطة الدينية المتمثلة في الكنيسة التي تعطى نفسها حق تفسير الكتاب المقدس وتحرمه على غيرها، فجعل التفسير ليس حكراً على فرد معين أو سلطة بذاتها، بل أعطى الجميع الحرية في تفسيره وفهمه، لأن الله لم يحرم أحداً من التفكير والتفسير والفهم، بل هو حق لجميع الخلق.

١٤. انتهى سبينوزا إلى أن الكتاب المقدس قد أصابه التحريف والتبديل والتزييف، أما الوحي المطبوع في القلوب فهو جوهر الشريعة، ويمكن إدراكه بالنور الفطري.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١٥. إن سبينوزا لم يكن يؤمن بالتثليث النصراني، كما أنه رفض كثيراً من تحريفات اليهود للتوراة، واعتبر التوراة الحالية تأليفاً إنسانياً وليست وحياً، ولهذا اتهم بالخروج على العقيدة اليهودية وحكم عليه بالطرد، فكان يعاني من النفي المزدوج؛ النفي من قبل المسيحيين الذين يرونه يهودياً، والنفي أو الطرد من قبل اليهود باتهامهم له بالهرطقة، والأمر الثابت تاريخياً أن سبب طرده والنفي لمزدوج الذي تعرض له أنه أول من دشن النقد الباطني لنصوص العهد القديم، وانتهى إلى رفض معظم التوراة والعهد القديم بحجة أنها لا تصمد أمام المنهج الذي قام بتوظيفه في نقد نصوصهما، كما أنه رفض ادعاءات العهد القديم (الإنجيل) في المسيح، وصرح سبينوزا بأن عيسى لا يعدو أن يكون إنساناً كسائر الناس.

١٦. انتهى البحث إلى أن سبينوزا بهذا النقد يعتبر سابقاً للآراء الحديثة في نقد الكتاب المقدس، فكان سابقاً لعصره، مؤسساً لنقد الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) في الغرب.

١٧. كشف هذا البحث عن كون سبينوزا ربوبياً خالصاً؛ فالربوبي شخص يؤكد وجود الله الذي يمكن معرفته عن طريق العقل والنور الفطري، وينكر الوحي بحجة أن العقل البشري وحده قادر على أن يعطينا كل ما نحتاج إلى معرفته لنحيا حياة أخلاقية ودينية صحيحة، وليس له أي صلة بالعالم، لأنه يتركه يعمل وفق القوانين الطبيعية الثابتة التي لا تتغير، وهو الأمر الذي تجلى بوضوح في مذهب سبينوزا وخاصة وحدة الوجود بين الله والطبيعة، وفي رفض الوحي والمعجزات، وتقديم المعرفة العقلية على المعرفة النبوية. فهو ينتمي إلى الربوبية الكلية، التي تجمع عناصر الربوبية مع عناصر وحدة الوجود والاعتقاد بأن الكون نفسه هو الإله.

١٨. من أهم ما كشف عنه هذا البحث أن سبينوزا ليس ملحداً ولا منكراً لوجود الله تعالى، بل وصفه بكل كمال، وإنما هو ملحد بإلاله في التصور اليهودي والمسيحي، الإله في الصورة الجسمية اليهودية والنصرانية، وعندما تصور سبينوزا الإله المطلق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اللامتناهي تصور أنه متصل بالطبيعة غير منفصل عنها ولا منفصلة عنه، لكن فلسفته الدينية لا تخلو من مسحة روحية.

١٩. لقد كان سبينوزا بهذه الفلسفة صاحب الإرهاصات "لفلسفة الدين" كما ظهرت بعد ذلك عند كانط (Kant) في كتابه "الدين وحدود العقل وحده"، ولولا أن شابت فلسفته في الدين بعض الشوائب المنهجية لكان المؤسس الحقيقي لفلسفة الدين بلا منازع.

"والله ولي التوفيق"

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مراجع البحث

١. اتيان باليبار: سبينوزا والسياسة، ترجمة منصور القاضي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، بيروت، ١٩٩٣م، ص٧٠ – ٨٠.

٢. أحمد شلبي (الدكتور): مقارنة الأديان (اليهودية)، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية عشر، ١٩٩٧م.

٣. أشرف منصور (الدكتور): العقل والوحي . مبدأ التأويل بين ابن رشد وموسى بن ميمون وسبينوزا، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠١٤.

٤. أشرف منصور (الدكتور): فلسفة سبينوزا في الهوية وتطوراتها لدى شلنج، كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية.

٥. أ. ف . توملين: فلاسفة الشرق، ترجمة: عبد الحميد سليم، مراجعة: علي أدهم، ط٢. دار المعارف

٦. اميل برهية: تاريخ الفلسفة، ج٤، القرن السابع عشر، ترجمة : جورج طرابيشي، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت . لبنان، ١٩٨٣م.

٧. أندريه كريسون: سبينوزا، ترجمة: تيسير الشيخ الأرض، دار الأنوار، مكتبة العباسية . دمشق، ١٩٦٦.

٨. برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث "الفلسفة الحديثة"، ترجمة: د.محمد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م.

٩. برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث "الفلسفة الحديثة"، ترجمة: د.محمد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م.

١٠. برتراند رسل: حكمة الغرب، ج٢، سلسلة عالم المعرفة . الكويت.

١١. جلال الدين سعيد (الدكتور): سبينوزا والكتاب المقدس، الدين والأخلاق والسياسة، الناشر: مؤسسة مؤمنون بلا حدود، ط١، ٢٠١٧م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١٢. جوزايا رويس: روح الفلسفة الحديثة، ترجمة: د. أحمد الأنصاري، مراجعة: د. حسن حنفي، المجلس الأعلى للثقافة، العدد: ٤٦٨، ٢٠٠٣م.

١٣. جون كوتنغهام: العقلانية فلسفة متجددة، ترجمة: محمود محمد الهاشمي، الناشر: مركز الإنماء الحضاري، حلب، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

١٤. جيمس كولينز: الله في الفلسفة الحديثة، ترجمة: فؤاد كامل، القاهرة، دار قباء للنشر والتوزيع، ١٩٩٨م.

١٥. حسن حنفي (الدكتور): في الفكر الغربي المعاصر: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

١٦. ريتشارد شاخت، رواد الفلسفة الحديثة، ترجمة: د. أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، سلسلة الألف كتاب الثاني (١٣٢)، ١٩٩٣م.

١٧. رينيه جينو (العارف بالله الشيخ عبد الواحد يحيى): مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية (والهندوسية بوجه خاص)، ترجمة: عمر الفاروق عمر،مراجعة وتقديم: سعد الموجي، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٣م.

١٨. رينيه ديكارت: التأملات في الفلسفة الأولى، ترجمة عثمان أمين، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨م.

١٩. رينيه ديكارت: حديث الطريقة، ترجمة: عمر الشارني، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٨م، ص٤٤ .

٢٠. رينيه ديكارت: مقال عن المنهج، ترجمة: محمد الخضيري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ١٩٨٥م، ص١٤١.

٢١. رينيه ديكارت، التأملات في الفلسفة الأولى، ترجمة نعليق: عثمان أمين، الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٩م .

٢٢. سبينوزا: رسالة في إصلاح العقل، ترجمة: جلال الدين سعيد، دار الجنوب للنشر، تونس، ١٩٩٠م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢٣. سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة حسن حنفي، دار الطليعة ١٩٨١م.

٢٤. سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: د. حسن حنفي، مراجعة: د. فؤاد زكريا: الطبعة الأولى، الناشر: دار التنوير للطباعة بيروت، ٢٠٠٥م.

٢٥. سبينوزا: علم الأخلاق، ترجمة : جلال الدين سعيد، مراجعة: جورج كتورة، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

٢٦. سعد الدين السيد (الدكتور): المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم، دار المعارف، الطبعة الثانية، ص٢٧.

٢٧. سعيد بن يوسف الفيومي: الأمانات والاعتقادات، نشره لانداور، ليدن، ١٨٨٠.

٢٨. السيد ولد أباه: الدين والسياسة والأخلاق "مباحث فلسفية في السياقين الإسلامي والغربي، مطبعة جداول، بيروت الطبعة الأولى ٢٠١٤م، ص٢٩٢، ٢٩٣.

٢٩. عبد الجبار الرفاعي (الدكتور): تمهيد لدراسة فلسفة الدين، موسوعة فلسفة الدين، ج١، الناشر: مركز دراسات فلسفة الدين . بغداد، دار التنوير للطباعة والنشر، ط١، ٢٠١٤م.

٣٠. العقاد: التفكير فريضة إسلامية، الأعمال الكاملة، دار الهلال، ب.ت.

٣١. العقاد: الله، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، فبراير ٢٠٠١م.

٣٢. علي أكبر رشاد: فلسفة الدين، تعريب موسى ظاهر، بيروت، مركز الغدير للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.

٣٣. علي عبد المعطي (الدكتور): تيارات فلسفية حديثة، دار المعرفة الجامعية . الاسكندرية، ١٩٨٤م .

٣٤. عوض الله حجازي (الدكتور): مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٣٥. فردريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة، المجلد الرابع، الفلسفة الحديثة: من ديكارت إلى ليبنتز، ترجمة وتعليق: سعيد توفيق، محمود سيد أحمد، مراجعة وتقديم: د/ إمام عبد الفتاح إمام،، المركز القومي للترجمة، طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.

٣٦. فؤاد زكريا (الدكتور): سبينوزا، الإسكندرية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.

٣٧. فؤاد زكريا (الدكتور): سبينوزا، الناشر: مؤسسة هنداوي، ب. ت .

٣٨. محمد عثمان الخشت (الدكتور): العقائد الكبرى بين حيرة الفلاسفة ويقين الأنبياء، دمشق، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

٣٩. محمد عثمان الخشت (الدكتور): مدخل إلى فلسفة الدين، دار قباء للطباعة والنشر . القاهرة، ٢٠٠١م.

٤٠. محمد غلاب (الدكتور): المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة، دار إحياء الكتب العربية بعيسى البابي الحلبي، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م.

٤١. محمود زقزوق (الدكتور)، دراسات في الفلسفة الحديثة، دار الطباعة المحمدية، بالأزهر بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥/ ١٩٨٥م.

٤٢. مراد وهبه (الدكتور)، المعجم الفلسفي، القاهرة، دار قباء للنشر والتوزيع، ١٩٩٨م.

٤٣. مصطفى النشار (الدكتور): مدخل جديد إلى فلسفة الدين، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠١٥م.

٤٤. مصطفى النشار (الدكتور): مدخل جديد إلى فلسفة الدين، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م، ص٢٤٣.

٤٥. موسى شاهين لاشين (الدكتور): اللالئ الحسان في علوم القرآن، مطبعة دار التأليف، بمصر، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٤٦. ول ديورانت: قصة الفلسفة، ترجمة: د/ فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف . بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٤٧. ولتر ستيس: الزمان والأزل . مقال في فلسفة الدين ، ترجمة: زكريا إبراهيم، مراجعة أحمد فؤاد الأهواني، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٣م.

٤٨. وليم جيمس إيرل: مدخل إلى الفلسفة، ترجمة: د. عادل مصطفى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١١م.

٤٩. وليم كلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، ترجمة: محمود سيد أحمد، مراجعة: إمان عبد الفتاح إمام، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥م.

٥٠. يحيى ذكري (الدكتور): علم الكلام اليهودي سعيد بن يوسف الفيومي "سعديا جاءون نموذجاً" الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، ربيع الأول ١٤٣٧هـ . يناير ٢٠١٥م.

٥١. يوسف كرم: الفلسفة الحديثة، طبعة دار المعارف، الطبعة الخامسة. ب. ت.

المراجع الأجنبية

1.The cambrige Dictionry of philosophy, General Editor: Robet Audi, Cambidge University press, Second edition, 1999.

2.Wolfson(H.A):The Philosophy of Spinoza: Meridian Paper backs: New – York 1967.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفهرس

الموضوع
المقدمة
الفصل الأول: السمات العامة لفلسفة سبينوزا.
المبحث الأول: التعريف بسبينوزا
البحث الثاني: منهج سبينوزا
المبحث الثالث: فلسفة سبينوزا والعقلية الديكارتية.
الفصل الثاني: فلسفة الدين عند سبينوزا.
المبحث الأول: مفهوم (فلسفة الدين) وتطوره.
المبحث الثاني: وجود الله وصفاته عند سبينوزا.
المبحث الثالث: نقد سبينوزا للتوراة.
المبحث الرابع: النبوة عند سبينوزا.
المبحث الخامس: نفي القدسية الأبدية لبني إسرائيل.
المبحث السادس: المعجزة.
المبحث السابع: الفرق بين النبي والحواري.
المبحث الثامن: العقل واللاهوت.
الخاتمة
المراجع
الفهرس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العقل وحده"، والتي لم تكن لتظهر بهذه الصورة المكتملة لولا سبينوزا وجهوده في هذه المسألة؟

كما أن البحث يسلط الضوء على نقاط مهمة ومحورية في فلسفة سبينوزا لم تأخذ حقها من قبل، ومن

أهمها: التأكيد على أسبقية سبينوزا لعصره عبر إخراجه من القرن السابع عشر، وإلحاقة بالقرون التالية التي شهدت نشأة فلسفة الدين كتخصص دقيق. كما يتناول هذا البحث قضية إلحاد سبينوزا، وهل كان سبينوزا ملحداً أم لا؟.

ومن أهم ما كشف عنه هذا البحث أن سبينوزا ليس ملحداً ولا منكراً لوجود الله تعالى، بل وصفه بكل كمال، وإنما هو ملحد بإلاله في التصور اليهودي والمسيحي، الإله في الصورة الجسمية اليهودية والنصرانية، وعندما تصور سبينوزا الإله المطلق اللامتناهي تصور أنه متصل بالطبيعة غير منفصل عنها ولا منفصلة عنه، لكن فلسفته الدينية لا تخلو من مسحة روحية.

كما كشف هذا البحث أن سبينوزا بهذه الفلسفة صاحب الإرهاصات "لفلسفة الدين" كما ظهرت بعد ذلك عند كانط في كتابه "الدين وحدود العقل وحده"، ولولا أن شابت فلسفته في الدين بعض الشوائب المنهجية لكان المؤسس الحقيقي لفلسفة الدين بلا منازع.

الكلمات المفتاحية: فلسفة – الدين – سبينوزا . الإله . العالم . النبوة . المعجزة . التوراة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner